وداد سكاكيني

أمهات المؤمنين
وبنات الرسول
صلى الله عليه وسلم

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الإدارة : ١١ شارع جواد حسنى
ص . ب ١٣٠ القاهرة – ت : ٣٩٢٥٥٢٢

٢٣٩,٧ وداد سكاكيني.

ود أم أمهات المؤمنين وبنات الرسول/ وداد سكاكيني.- ط٢.-

القاهرة: دار الفكر العربي، إيداع ١٩٩٢.

١٤٨ ص؛ ٢٤ سم.

تدمك: ٥ - ٠٥٣٧ - ١٠ - ٩٧٧.

١- زوجات النبي. ٢- بنات النبي. ٣- أهل بيت الرسول.

أ- العنوان.

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٨٦١٨٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

تطلعت إلى سماء العرب فى أزهى عصورهم، فرأيت فيها كواكب نسوة ساطعات، بهرنى تألق نورهن وغمرنى شعاع من بركة إيمانهن وإحسانهن، وكنت كأعرابية تهتدى بهدى النجوم فى صحراء الحياة، فتمرست بمطالع هذه الكواكب ومغاربها، وعرفت مسارحها ومساربها، فأحببت أن أقتبس من نورها، وأن أنشر هذا النور الذى تجلت فى ألوانه وأفانينه أكرم معانى الأمومة والإيمان، وأسمى مزايا البطولة والاستشهاد، فتخيرت لها طائفة من أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء، ومن أولى من هؤلاء الفضليات العبقريات بالذكر والتصوير والاعتبار، فلقد رفعن فى دنيا العرب والإسلام مكانة المرأة، وكن حجة التاريخ على الرجال، فعكفت طويلا على كتب السيرة والحديث ورواية الأوائل الذين نثروا أنباء هؤلاء النسوة الكرائم فى ثنايا مؤلفاتهم وتصانيفهم، ونشروا ما يتصل بتلك السير الرائعة والحوادث الجسام على طريقتهم التاريخية فى غير معرض واحد أو رواية واحدة.

وإذا كان على المعاصرين من الكاتبين والكاتبات وقد افتنوا فى أساليبهم فنوناً وألواناً أن يسكبوا فيها أحداث التاريخ ولباب الأدب، ليحببوا بمآثرنا وآثارنا أذواق المحدثين من الرجال والنساء، فقد رأيتنى ماضية فى هذا السبيل، على طريقتى التى جعلت سداها الحقيقة ولحمتها التاريخ، ساكبة مداد قلمى على هذه الصور الإنسانية المثالية، من شعور طالما هزنى فخراً واعتزازاً، بهؤلاء الأمهات والأخوات اللاتى لم تنجب أمثالهن أمة من الأمم فى قديم الدهر وحديثه، وكان يفيض فى قلبى ذلك الشعور وأنا أقرأ سيرهن وأتتبع أخبارهن، حتى جلوتها فى صور فنية، تأنس بها النفس ويعلق بها الخاطر، وهأنذى أزجيها إلى فتيات العرب المتنورات، وأمهاتهن اللواتى هببن فى مُطل هذه

النهضة إلى حياة واعية راقية، نافضات عنهن أثقال ماض قاس بجهالته وزرايته على المرأة، متحررات من الأصفاد البالية، كما تتحرر أقوامهن وبلادهن من أغلال طالما أرهقتهم عسرا، وسدت عليهم منافذ الحرية والاستقلال.

فإذا لقى كتابى هذا رضا قارئيه وقارئاته، فقد كفانى غبطة فى أن قربت إليهم صحفاً غراً محجلة، عن نساء العرب والإسلام، يلتمسون فى تضاعيفها السلوى والعزاء، ويحسون منها العبرة والإباء والأسوة الحسنة فيما كانت عليه المرأة العربية من مكانة وكرامة.

وما أحرانا ونحن على وصيد حياة جديدة حرة، بأن تتخذ المرأة المعاصرة، من هذه السير المثالية نشيداً تحدو به نهضتها، وأهزوجة تهدهد طفلها، وتمضى فى بيتها وبين الناس، على هذا النور المنبعث من صوب الجزيرة ودارة الوحى، مستلهمة من أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء معانى الإيثار والوفاء وآيات التقوى والفداء.

وداد سكاكينى

مقدمة الطبعة الثانية

في عام ١٩٤٧ نشرت كتابى «أمهات المؤمنين» فلقى من حفاوة القراء والنقاد والإذاعة ما حفزنى للاستزادة من موضوعه والتوسع فيما كنت بسبيله من الكتابة عن فضليات العرب والإسلام فى أزهى عصورهما، ممن كان لهن أثر أو مشاركة فى حياة الرسول وصحبه أيام الرسالة وبعدها، ثم تراخى الزمن فى إعداد هذا الموضوع فطويته إلى حين كدأبى كلما عنّ لى جديد أو التمست المزيد من التعمق والاطلاع حتى ظهر بعد بضع سنين كتاب الأديبة الدكتورة بنت الشاطئ، وقد سمته «بطلة كربلاء»، فعجبت لإقدامها على التأليف فى حياة هذه السيدة الفضلى، إذ لم يعجبها إعجابى بها و «بأمهات المؤمنين» فى كتابى[1]، ولم تلبث الدكتورة أن نشرت كتابها «نساء النبى» عام ١٩٥٤، فاستبشرت خيراً بقلم متين موهوب يلقى النور على جوانب من حياة هؤلاء النسوة اللاتى كن مع الرسول فى حياته الزوجية والنضالية، وشاركن فيما احتمل من البلايا والخطوب فى سبيل دعوته الكبرى، لكن قلم الأديبة الدكتورة بنت الشاطئ أصر فى كتابها «نساء النبى» على أن يتناول «الجانب البشرى» من حياة محمد عليه السلام، فرحت أتساءل: وما هو هذا الجانب الذى عنته الكاتبة الفاضلة؟

لقد ذكرت فى بضع صفحات كلمات بشر وبشرية وبشرى عشرات المرات، قالت فى خلالها إن إيمانها قد عصمها من التحرج المنكر فيما لا يحتاج إلى ستر وكتمان من أنباء الحياة الزوجية الخاصة بالرسول الذى لم يحاول قط أن يبرأ من بشريته!

فعدت أحاور نفسى خطرة ثانية، متعجلة متسائلة، قبل أن أمضى فى قراءة الكتاب، ما هى البشرية فى معناها اللغوى والاصطلاحى؟ أو التى نص

(١) مقالها فى هذا منشور بمجلتى «الهلال» و «الكتاب» عام ١٩٤٧.

عليها القرآن كما قالت: «فقد زين الإجلال لمن كتبوا عن محمد أن ينزهوه عن بشريته، وأصر هو على تقريرها والاعتراف بها[1]».

تبين لى أن المؤلفة الفاضلة شاءت كما ذكرت فى المقدمة «أن لا تكون دراستها هذه على النحو التقليدى المألوف فى تراجم الأشخاص». وإنما عناها أن «تتمثل حياة النسوة اللاتى عشن فى بيت محمد وأن تصور شخصياتهن تصويراً يجلو كلا منهن زوجة وأنثى فى بيت كريم تلاقت فيه البشرية بالنبوة».

على أن «حياة محمد ﷺ فى منزله تبدو رائعة فى بشريتها، فقد كان يؤثر أن يعيش بين زوجاته رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان، ولم يحاول- إلا فى حالات الضرورة القصوى- أن يفرض على نسائه شخصية النبى لا غير، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية، فيروعنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجدانى ولا الجمود العاطفى، وما ذلك إلا لأنه- ﷺ- كان سوىَّ الفطرة فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والهمود والجفاف».

«وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات بأنهن كن دائماً فى حياة الرسول البطل يصحبنه حين يخرج فى معاركه ويتحن له ما يرضى بشريته ويغذى قلبه، ويمتع وجدانه، ويجدد نشاطه»[2].

فإذا تعرضت الأديبة المؤلفة لقضية التعدد فى زوجات النبى راعها ما قال المستشرقون فى هذه القضية «إذ لم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النساء تحت رجل واحد سوى مظهر شهوة طاغية، وإنه لضلال قد أملاه التعصب الأحمق والهوى الأعشى وانحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة محمد آباد وأبعاد..[3]

(١) ص ٨ نساء النبى.

(٢) ص ١٨ نساء النبى.

(٣) ص١٩.

وقد أحسنت الكاتبة الفاضلة فى أخذها بالجانب المضئ الذى فضلت فيه التعدد المشروع للضرورة على نظام الزوجة الواحدة الذى لا يتبع بذمة ودقة فى بلاد المستشرقين والمشنعين. ثم ناقضت نفسها وهى تصور «شقاء الضرات المرهقات بالغيرة الزوجية المحتدمة فى بيت محمد مما خيل إليها معه أن هذه الغيرة جعلت من هذا البيت ميداناً لمعارك نسوية لاتهدأ ولاتفتر وإن لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء الزوجات».

عجبت لهذا المجهود الذى بذلته الدكتورة بنت الشاطئ لبحثها هذا وفى الجانب الذى عناها وأخذ من عنايتها الكثير، فلما وصلت إلى زواج محمد من سودة العامرية- وكانت أرملة مسنة رضى بها الرسول بعد وفاة خديجة لتقوم على شؤون بيته وبناته حتى دخلت بعدها عائشة الصغيرة زوجة مفضلة- قالت المؤلفة الباحثة «إن محمداً أشفق على سودة من الحرمان العاطفى وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات وحاول جهد المحاولة أن يفتح لها قلبه، لكن بشريته لم تطاوعه، أما عواطفه فأنى له- وهو بشر- أن يقسرها على غير ما تهوى»[1].

ألا يفهم القارئ من هذا كله أن البشرية التى عنتها المؤلفة هى التى عناها المستشرقون، فكيف ضاقت بإرجافهم ولزهم هذا الجانب مما تقولوا فيه على النبى عليه السلام، ثم تسمح لقلمها بأن يصر ويلح على أن محمداً لم يبرأ من بشريته، فعدد الزوجات كما قالت ومارس حياته الزوجية ببشرية سوية لم تجردها النبوة من العواطف والمشاعر والرغبات!

وما كنت لأطيل التأمل فيما جاء بمؤلف الدكتورة بنت الشاطئ عن هذه البشرية التى أصرت عليها لولا أنها وقفت طويلا عند رأى الدكتور محمد حسين هيكل- يرحمه الله- فى كتابه «حياة محمد» وهو يستفظع لمز المبشرين والمستشرقين الذين دسوا الأقاويل فى موضوع أراد به الإسلام أن يبطل الحقوق المقررة فى التبنى والادعاء عند العرب حين تزوج الرسول مطلقة ربيبه الذى تبناه

---

(١) ص٥٢.

وهو زيد بن حارثة، وكان متزوجاً زينب بنت أميمة بنت عبدالمطلب عمة محمد.

على أن زينب هذه لم تسعد بزيد بل شقيت بزواج خيل إليها فيه أنها وهي الهاشمية الحرة قد لحق بها الهوان من جراء زواجها بمن كان من الموالي والأدعياء، وإن أقصاه عنهم عتق محبب من خديجة التي وهبته لمحمد حتى أشهد الناس على أن زيداً الذى تبناه هو وارث وموروث كأنه من لحمه ودمه على عادة العرب قبل الرسالة.

ولما كره زيد من زوجته زينب هذا التأبى والتعيير وقد ساوى الإسلام بين الناس وجعل أكرمهم عند الله أتقاهم، تخلص منها بأبغض الحلال وهو الطلاق.

ود الرسول أن يتزوج زينب بعد ربيبه ويضمها إلي بيته زوجة مكرمة، فهي بنت عمته، وقد عرفها طفلة وصبية فإذا فزعت إليه أو مال إليها بعد الذى أصابها والتبس في أمرها، رد إليها كرامتها، لكنه كان يخفى فى نفسه هذه الرغبة خشية الظنون والتقول، لأنها مطلقة ابنه الدعى ويريد أن يقضى على هذا العرف المألوف بهذا الزواج الذى يوضح الفرق بين البنوة والتبنى.

وكان هذا الزواج أمراً مفعولا لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً، فاتخذ أعداء محمد ورسالته فى القديم والحديث من هذه المشكلة التى حل عقدتها الإسلام موضوعاً للدسيسة والتشنيع. وقد رد الدكتور هيكل هذا اللمز من بعض المستشرقين المتهمين والمتجنين على الدين والتاريخ إلى الخصومة القديمة التى ابتليا بها منذ الحروب الصليبية[1] لكن الأديبة الدكتورة بنت الشاطئ لم يعجبها رد هيكل فأصرت على أن قصة إعجاب الرسول بزينب مطلقة زيد «كتبت قبل أن تسمع الدنيا بالحروب الصليبية بأقلام نفر من مؤرخى الإسلام ورواة السيرة لا يرقى إليهم اتهام بعداء النبى والدس على الإسلام».

«وما نعرف فى تاريخ الأبطال ولا أقوال الأنبياء من أصر على إعلان بشريته وتقريرها إصرار محمد بن عبدالله».

---

(١) حياة محمد ص ٢٩٥ حبذا لو أضاف إليها: «والدعوة الصهيونية».

«أفينكر على بشر رسول أن يرى مثل زينب فيعجب بها ، وماذا يطلب من مثله- فى سمو خلقه وعفة ضميره- أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبته».

«إن القصة- وقد نقلها إلينا رواة غير متهمين- لترتفع برسولنا عليه السلام إلى أقصى ما تطيقه بشرية من عفة وضبط للنفس واعتقال للهوى، فما ادعى نبينا قط أن قلبه بيده ولازعم مرة أنه مبرأ من عواطف البشر منزه عن أهوائهم»[١].

فإذا كان بعض المبشرين بمآرب المستعمرين وبعض المؤرخين العرب ذكروا أن محمداً أبصر زينب بعد زواجها فوقعت فى نفسه- وقد رأى فتونها من قبل- إذ انكشف عنها سترها وهى فى حجرتها حاسرة حين جاءها يتفقد زيداً وأعجلتها البغتة عن الالتفاف بردائها، أيكون هذا دليلا على أن النبى لم يضبط نفسه إزاء فتونها فتمناها وتشهاها ؟

وهل كان تأويل بعض المفسرين وهم قلة معروفة بنهجها ، وترديد الرواة ولو كان منهم الطبرى، حجة بالغة دامغة على هذه الرواية المضعوفة؟

وبعد فما كان أغنى المؤلفة عن الخوض فى هذا الإلحاح والإصرار على بشرية محمد وإيثار الكلام على هذا الجانب بالتوكيد والتأييد لما زعم الذين تجنوا على الرسول والرسالة بمثل هذه الأقاويل، وهى تعلم أن الإنسانية والمرأة العربية لم تعرف أحب إليها من محمد الذى كان لهما محرراً ومبشراً بمكانة النساء وداعياً إلى تكريمهن أمهات وزوجات وتعليمهن كالرجال، وكانت سيرته مع المرأة زوجة وبنتاً وقريبة وغريبة تتجلى فى معاملته وتوجيه نصحه ورأيه لما ينبغى لها من حق وما عليها من تكاليف، وأن لا غضاضة على الرجل فى أن يتلقى عنها ويقتدى بها إذا كانت من ذوات النبوغ والتقوى والكفاية فى عملها فقال:

- خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء.

والحميراء هى عائشة زوجته وتلميذته التى كانت البرهان على ما بلغت

---

(١) ص ١٣٤ و ١٣٥ نساء النبى.

المرأة المسلمة من مكانة علمية حتى استطاعت أن تتقدم الرجل بنبوغها وأن تكون له معلمة وقدوة ومثلا فى استقامتها وفضلها.

فالرسول الذى أحب المرأة لحقها عليه وعلى الإنسانية، وعاملها بما ينبغى لها حاشاه أن يكون عدد الزوجات لبشريته التى ألحت عليها الدكتورة بنت الشاطئ، وهل لها من تأويل غير ما عنت وأكدت؟ وقد قالت إنها «الفطرة السوية» التى جعلت محمداً معدداً للزوجات، وكأن بشريته المتمثلة فى رجولته ونزعته الجنسية غلبت على طبعه فلم تحصنها زوجة واحدة، ولو شاء محمد عليه السلام أن يكون التعدد لمصلحته وبشريته لاختار زوجاته من أنضر الصبايا عمراً وعوداً، وكان بوسعه ذلك لكنه اضطر إلى التعدد إما حلاً لعقدة فى مشكلة قبلية أو جبراً لخاطر أرملة مسنة فاضلة كان لها ولزوجها الذى مات عنها شهيدا البلاء والفداء فى الجهاد والهجرة، أو حسما لخصومة محتدمة كادت تفرق بين المؤمنين وتزيد طغيان المكابرين، ولو اتسع المجال فى هذه المقدمة لأتيت على أسباب كل زواج اقتضته الدعوة والرسالة فأقدم عليه الرسول وكان له أثره وصداه فيما أراد.

أيكون محرر المرأة والداعى إلى حقوقها ومكانتها عبداً لهواه وفتونها وقد أحاطه بها منذ ولد وفقد الأبوين حتى تزوج ليعرفها على حقيقتها وطبعها، فعرفها مرضعة وحاضنة ومربية ونسيبة ولم يكن غنياً بماله فى عهد الشباب، والبال مشغول بحياة قومه ولا يملك من الرزق إلا ما يسد الإعواز والكفاف، والزهادة فى المعيشة كانت تقنعه بأجرته فى التجارة، فلما دان له الأصدقاء والأعداء على السواء ووثقوا برصانته وأمانته وقد أحس فى قلبه بأنه مدعو لغد كبير لا يتسع يومه للكدح والقوت وجد فى الزواج من خديجة بنت خويلد وسيلة للتخفف من هم المعيشة، فإن هم قومه كان أشق عليه وأفدح، ولم تكن ملامح نبوته لتخفى على خديجة الزوجة الراجحة بنت الأربعين فقد قالت له:

- أرجو أن تكورن النبى المرصود، فإن تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى وادع الإله الذى يبعثك أن يبعثك لى..

واستجاب الله لدعاء الزوجين المتوادين، فكانت رسالة محمد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور والدعوة إلى حرية المرأة فى معانيها الخلقية والحقوقية؟

ولدت الرسالة على يد خديجة أول مؤمنة بها وبصاحبها الذى عرف حقها ومنزلتها، فدعا إلى تحرير النساء وتكريمهن قائلا: إنما النساء شقائق الرجال، بل لم يقل أحد فى تحرير المرأة ورعايتها مثل ما قال محمد الذى كانت رسالته العالمية قائمة على تكافؤ الجنسين وانطلاق الجناحين..

وهذه المساواة الإسلامية التى سنها الرسول للمرأة لم ترق إليها أحسن النظم والقوانين فى أرقى الديمقراطية المعاصرة.

لقد شرع لها مادل على نظرته إلى التبعات والتكاليف التى تقوم بها، وإلى جدارتها فى مساواة تحفظ حرمتها وتضمن حقوقها إذا غبنت أو تجنى عليها الرجل زوجاً أو ملزما بها، على أن يكون كفاء ما فرض عليها نحوه، وهو لا يفضل عليها إلا بما كلفه الشرع من كفايتها ورعايتها. كانت مجامع بيزنطة وغيرها فى عصر الرسالة تتحاور وتتشاور فى قضايا المرأة وإنسانيتها فقررت أنها مخلوقة لمتعة الرجل وخدمته..

أما محمد عليه السلام الذى وعد المؤمنين بالجنة فإنه رآها تحت أقدام الأمهات، على أن أحرار الفكر من علماء الغرب فى العصور الحديثة جعلوا تحرير المرأة الذى جاء به الإسلام من الأسباب القوية فى نهضة العرب وفتحهم المبين وقيام حضارتهم، لكن الذين امتهنوا المرأة بعد حين كانوا ممن ضعضعوا الحضارة والنهضة، وأساءوا فى المعاملة.

ولئن كان تعدد الزوجات فى حياة الرسول مما تجد فيه الغمائز ثلباً، فما عددهن محمد إلا لحاجة ماسة وضرورة قصوى اقتضتها الرسالة والدعوة، وكان عند العرب تقليداً هينا لم تبطله الرسالة من فورها وماطوته ألبتة لأن تعاليمها لم تكن كما قلت من قبل، لشعب دون شعب ولا لآفاق محددة لا تتعداها، وإنما كانت للعالم على اختلاف مزاجهم وبلادهم وأطوارهم الحضارية وظروفهم

الاجتماعية، وإذا كانت هذه الرسالة العالمية الإنسانية قد أباحت التعدد لأسباب قاهرة فقد اشترطت العدل بين الزوجات. وإذا تعذر فواحدة، والعدل هذا بمدلوله المادى قد يحقق، وأما بما فى القلب والنفس فأمره إلى الله، وقال رسوله الكريم فى صدد هذا الأمر.. «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذنى بما تملك ولا أملك..».

فما هى الفائدة العلمية والمنهجية وراء هذا الإصرار على الجانب «البشرى» فى حياة محمد، وكم يجد فيه الذين أضلهم الهوى والتعصب فى الشرق والغرب تثبيتاً لمآربهم وبعداً بالرسول عن حقيقته ورسالته السماوية؟

وهل كان من الطوابع البشرية التى عنتها المؤلفة جواز الدنايا والانحراف مما يصيب البشر جميعاً، وقد وصفت الرسول عليه السلام بأجل المزايا والخصال؟

ما أرى فى هذا الإلحاح ونحن نبنى المجتمع العربى الجديد فى عهد الثورة إلا رجعية معاصرة، تستهوى العامة من الذين لاهم لهم فى الحياة إلا ألهية الزواج، واتخاذ التعدد فى العهد الأول للرسالة مبرراً للاستهتار فيه أيامنا على بعد الزمان وتغير الأحكام، ونحن نعده من مشكلاتنا المعقدة التى سيحلها تطور الوعى والتعليم والحياة.

ولو أن مؤلفة «نساء النبى» بذلت جهودها فى بحثها لإلقاء النور على جوانب من إنسانية الرسول لم يرها الباحثون لأحسنت صنعاً وجاءت بجد وجديد، أما «البشرية» التى ألحت فى إيجادها وتأييدها فما كانت لتمس قلوب المؤمنين، ولا كان الإقدام على بحثها مأثرة فكرية أو تحرراً منهجياً لأن هذا المذهب تأبّى عليه المنطق والواقع ولم يلتزمه إلا بعض الفرنجة من المستشرقين.

فهل علىّ من حرج إذا أعدت الدعوة لبعث التراث النسوى العربى فى حياتنا الجديدة وعلى الطريقة التى تسلم من التأويل العليل وتبرز صاحب الرسالة وأمهات المؤمنين بمزايا الحقيقة والتاريخ الذى خلا من الزيف والتمويه.

وهأنذى أقدم كتابى مرة ثانية ولكن فى صوره المجددة المكبرة التى لاتختلف فى صدق ألوانها وظلالها عن الصورة الأولى.

وداد سكاكينى

أمهات المؤمنين

خديجة بنت خويلد

(أم الزهراء)

«أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لاصخب فيه ولانصب»

حديث نبوى شريف

«والله ما أبدلنى الله خيرا منها، آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء»

من حديث النبى ﷺ عن خديجة رضى الله عنها

انظر.. هذا هو الركب العائد، تتهادى هوادجه على بطحاء مكة، وقد تقاطرت عيسه وجلجلت أجراسها بالفضاء القريب.

وها هم رجاله يسحبون أعنة الجمال، وحاديها يهز بترجيعه شعور الشوق والحنين، والمطايا المترنحة مثقلة بالأحمال، إنها لفى هذه الأوبة قافلة من بلاد الشام بالطيوب والخضاب، وبأحسن المطارف والمتاع، وفيها من زينة النسوة والولائد أساور وقلائد، وأقراط وخلاخيل، وهذه مكة المكرمة ضاحكة مستبشرة، فقد ذهب عن أهلها الخوف والقلق منذ فصل الركبان، حتى باتوا ينتظرون معادهم على مثل النار، فإن مشارف الشام كانت نابية الجنبات مما بينها وبين المناذرة من جفوة وتربص.

وهناك فى بيت كريم من بيوتات مكة، قريب من بيت الله الذى بناه السادات من قريش وجرهم كوة فى علية تطل منها على موكب القافلة المقبلة امرأة عوان، وضيئة رزان، حفت بها الجوارى فى بهجة ومرح، وطغت على سيدتهن فرحة غامرة، لاحت ألوانها فى الحافات من حولها، فأحطن بها فرحات بأوبة الركب، طامعات فى خواتيم وأقراط، وثمة جارية منهن مبهورة الأنفاس ضاحكة السن تدنو من سيدتها وتشير إليها بهمس ودلال:

- يا للبشرى، إنه هو ياسيدتى وصوبه ميسرة.. هناك فى زحمة الناس، انظرى إليه لكأن نوراً يسعى بين يديه..

ولا تكاد خديجة تستمع للجارية حتى يخفق قلبها، ويحدثها حديثاً فتشرق أساريرها ويشيع المرح فى عطفيها، إذ كان قلبها غائباً، فآب بأوبة السفر، وكانت نفسها قلقة حيرى، فاطمأنت بعودة القافلة وفرحت بسلامتها وغنيمتها، ولم يكن قلق خديجة مذ فصلت القافلة عن حماها خوفاً على تجارتها، وقد جعلت محمداً الأمين مأموناً عليها دون غيره من فتيان قريش، وإنما كانت هواجسها قائمة محتدمة، خوفاً على هذا الفتى الذى ضاعفت أجره وزينت له الرحيل، فأغرت عمه وحببت إليه الكسب والسعى، وكان أبو طالب يصحب محمداً فى حداثته حينما كان يسافر بتجارته إلى الشام، ولم ينس ما

وصاه به الأحبار والرهبان فى رعاية هذا الفتى اليتيم، وحمايته من العوادى والخطوب فأسر الندامة لما سافر محمد فى تجارة خديجة. وخشى أن يتعرض لبعض السوء والمكروه فى طريقه، فما الذى عقد لسانه وحط فى قلبه الرضا برحيل الفتى الذى فضله على أولاده؟

ذلك ما كان يردده أبو طالب بينه وبين نفسه، وبين آله وصحبه. فلما عاد إليه محمد رد عنه ندامته وملامته، وجمع نفسه الموزعة وكانت واجمة مروعة فاطمأنت وثابت إلى أمنها وهدوئها.

وتدافعت النسوة إلى بيت خديجة، أقبلن مسرورات يشاركنها فى فرحتها، ويحدثنها بما شهدن فى موكب محمد، وخديجة صاغية حفية بصواحبها اللواتى كن يكبرن الفتى الأمين ويقلن لها:

- ما ينبغى أن يكون هذا رجلا من الناس!

وزاد حبورهن حين دخل محمد مستأذنا، فتلقته بنت خويلد بأحسن تحية ولقاء معجبة برصانته وأدبه، وأخذ يحدثها بحديث رحلته فى تجارتها، وأنه عاد منها ببضاعة مزجاة وربح موفور، وقد عادت به الذكرى إلى سفرته الأولى مع عمه حين بلغا بصرى الشام وتحدثا إلى رهبانها، فصور لخديجة طبيعة تلك الأرض وما فيها من جمال وخيرات، ولم يطل مجلس محمد، فقد خرج من لدن خديجة مشكوراً مبروراً.

وتحت العشية كان ميسرة بين يدى مولاته خديجة يقص عليها أروع القصص والتهاويل التى عرضت لمحمد فى طريقه إلى الشام وفى رجعته إلى مكة، وأن الله قيض لهذه التجارة من الخير والبركة ما ليس لهم به عهد، فزادها علما بما قيل لها عن مروءة محمد ورزانته، وأنصتت خديجة لحديث ميسرة فقد أنبأها أن الأحبار والرهبان مروا بمحمد مبهوتين، وألموا به فى صوامعهم مكرمين، وقد بشروه ومن كان معه من المرافقين فى هذه الرحلة بأن هذا الفتى العربى

الرصين هو النبى الموعود، المنعوت فى توراتهم وإنجيلهم، مستيقنين بأنه هو المرصود لهذا الوجود.

فشعرت خديجة بما ملك عليها نفسها، وملأها بهجة وحبا، وتاقت روحها إلى محمد. واهتزت أريحيتها، فأمرت بإعطاء السائلين والمحرومين حقهم فى مالها الرابح على يدى فتاها الأمين.

ثم نهضت إلى صناديقها وأوعيتها، فقلبت متاعها وأشياءها، وإذ بمال موفور بين يديها مما بيع لها فى مشارف الشام وتخوم البادية من بضاعة الحجاز.

ونثرت الهدايا على نسوتها واختصت ابن عمها الحبر الشاعر ورقة بن نوفل بهدية كريمة، وطلبت إليه أن تراه، وانثنت إلى حجرتها خالية إلى نفسها متشوقة لمحمد، فتراءى لها هذا الفتى المحبوب فى شمائله وسعيه، وارتدت خواطرها إلى أمه آمنة بنت وهب نسيبتها وجارتها فذكرت حداثة محمد وكفالة عمه له بعد وفاة أمه، وما كان يلقى هذا العم الرحيم من العسر والعنت فى رعاية أولاده وحماية هذا الولد اليتيم الذى سلمه الله وأدبه وميزه من لداته بالكرامة والتقوى.

وأقبل على خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل الذى تعمق فى علم الأحبار والرهبان وتبصر وهو المكفوف الضرير بأمور قريش وأطوار حياتها، إذ أنه أقام بمكة بعد تطواف فى بلاد الروم مكرما لا يسامي بعلمه وحديثه، فسألته خديجة عن محمد ونقلت إليه ما حدثها به ميسرة غلامها، وما شهدت هى ونسوتها من علامات لا يكاد يركن لها العقل، فقال لها:

- ما ينبغى أن يكون هذا رجلا من الناس!

ولم ينكر ورقة شيئا من خديجة، بل طاب له الحديث عن محمد ومزاياه، وازداد إيمانا برصانة هذا الفتى القرشي وفضله، وما ينتظر على يديه لهذه الأمة التى ضلت، فعبدت الأوثان التى لا تغنى عنها من الله شيئا.

ولم تتمالك خديجة شعورها وهى بنت الأربعين وقد ردت عنها خطبة السادة من قريش، إذ خشيت أن يكونوا طامعين فى مالها وحده، فألمحت لابن عمها ورقة برغبتها فى الزواج من محمد وإن يكن دونها سنا، فقال لها:

- لعل الحلم القديم يعاودك اليوم فى اليقظة كما كان يعاودك فى المنام بالأمس البعيد، ألا تذكرين تأويلى رؤياك الشمس الساطعة التى دخلت بيتك وملأته نوراً أضاء مكة وما حولها، حتى غمر العالم؟

ألم أقل لك يا خديجة ستتزوجين، وسوف يكون زوجك مثل الشمس التى رأيتها، ومن يدرى فقد يكون نبى الأمة محمداً، هذا الذى وقع اختيارك عليه، فإن فيه من المزايا ما ليس فى مثله من الرجال، وإنها لتنطبق على ما قرأت فى الكتب المقدسة.

وما كان لرجل أو امرأة فى ذلك العهد البعيد أن ينكر التعدد فى الزواج فإن خديجة بنت خويلد عرفته فى شبابها مرتين، تزوجت عتيقا المخزومى وأبا هالة التميمى، ولم يدم زواجها إلا بضعة أعوام، ترك لها الأول بنتا ومالا وترك طفلين لكن الموت تخطف الزوجين فطال حزنها وزهدت فيما كانت فيه من رغد ونعمى وآلت على نفسها أن تعيش للأيتام فى بيتها ترعاهم وتتاجر بمالهم الموروث، ولكم ردت الخاطبين ودها الطامعين فى ثرائها، دون المحرومين الذى كان لهم حق فى هذا الثراء، فما نسيت المبرة ولا الصدقات. وبقيت خديجة سيدة قريش برصانتها وتدبيرها، مرموقة المكانة والكلمة عازفة عن الزواج بضعة عشر عاما، حتى عادتها أحلام قديمة وذكريات طيبة، فإن قلبها كان يحدثها بغد كبير يطل على العرب بتغيير فى اعتقادهم وحياتهم، وبأن وراء الأصنام عندهم والأوهام حقيقة لابد أن تظهر، وغير بعيد أن يكون لفتى قريش يد فى الغد المرجو القريب، ولا ينبغى أن يحول تباعد السن بينها وبينه، فقد يجد لديها المودة التى لا يجدها فى أنضر الصبايا عوداً والحنان الذى حرمه صغيراً والعون الذى يحتاج إليه كبيرا، وكأن داعياً خفياً كان يخفف حيرتها وترددها ويحفزها للعزم والإقدام.

وبعد أيام برزت عزيمتها وحنينها إلى فتى قريش وأمينها، ترغب فيه زوجاً وتخطبه، واتخذت نفيسة بنت منية دسيسة إليه تدعوه إلى الجمال والمال، وإلى المكانة والرجاحة فى ذات خديجة، فرضى محمد جذلان منتصحاً، وأقبل من غده على سيدة قريش خاطباً كأنما تدفعه إليها قوة خفية لا ترد، وسرعان ما سعى هذا الفتى الأمين إلى عمه أبى طالب، يتخافت بصوته ويحدثه بخطبة خديجة فى أناة واستحياء، وقد أنصت له عمه فى رفق وحنان، ثم انفرجت شفتا الشيخ الوقور عن ابتسامة كانت قد افترت على وجهه منذ خمسين عاماً.

وينهض هذا العم الحنون فرحان باسماً، آخذاً سمته إلى سقيفة من سقائف قومه فيجتمع إلى الغطاريف من أهله وعشيرته، يستشيرهم بخطبة محمد، ويتسامع الناس بالنبأ الجديد متناهياً إليهم بشورى ابن عبدالله، فيغبطونه ويكبرونه ويكبرون فيه الرزانة والتدبير، وتشيع هذه الخطبة بين النساء، فتميد الصبايا من شدة اللهفة، إذ كانت كل واحدة منهن تتمنى لو كانت هى المخطوبة.

وها هم أولاء السادة المناجيد من قريش، عليهم العباءات الضافيات والعقالات المفتولة، يتبخترون فرحاً ومرحاً.

وها هم أولاء آل خويلد، يتلقون القوم بالبشاشة والمؤانسة، وينضحون عليهم الطيوب وقد فاحت من المجامر ريح الند والصندل، فإذا استوى على المكان أهل الأسرتين، جلس بين سماطين رجل خلعت عليه السن والحكمة وقاراً وجلالا، فاطمأن فى مجلسه وخطب الجمع قائلا:

- الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، حضنة لبيته الحرام، وسدنة لحرمه الآمن، وآتانا الحكم بالحق والأمانة.

يا معشر قريش، هذا ابن أخى محمد بن عبدالله له رغبة فى خديجة ولها فيه رغبة، وهو وإن كان قلا، فإن المال أمر حائل وعارية مستردة، وما يوزن بمحمد رجلا إلا رجح به شرفا وعقلا.

فإذا أتم الشيخ الوقور خطبة الإملاك، أجابه ورقة بن نوفل بخطبة حافلة بالعزة والتأييد، ناطقة بلسان عمرو بن أسد عم خديجة الذى أشهد القوم أنه أنكح محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد.

ولما انتهى الخطيبان، مدت المطاعم، وضرب على المعازف وقامت النسوة شاديات، راقصات على المزاهر، فرحاً بهذا الزواج الكريم.

وأخذ داعى مكة البشير ينشر فى أحياء العرب، نبأ هذه الفرحة. فبالسعد محمد وقد زف إلى خديجة ، وهى وإن يكن لها أكثر من عمره فقد أسبغت عليه من الحب والرفق والإحسان ما فاته من حنان الأمومة، وفتحت له قلباً فياضاً بالخير والإيمان ملأته مودة وسعادة وأمنا.

ودار الفلك دورات معدودات، شهد العرب فيها من خصال محمد وفعاله مالا عهد لهم به، فأيقنوا أن لهذا الفتى القرشى شأناً وأن فى حياته سراً، فقد أحسوا بوادره وشهدوا بواكيره ورضوا بقضائه فيهم كلما هاج الخصام بينهم واحتدم الخلاف والملام، وتعهدهم محمد بأمانته واستقامته فبروه وآثروه، ولكنه كره من قومه الذين أحبهم وأحبوه هذا المكر بينهم وهذا الحيف والتعسف ورثى لهم من جهالتهم التى ضلوا بها فعبدوا الأوثان، فأخذ يعتزلهم فى غار حراء.

كانت خديجة إذا نهضت فى الصباح، تفقدت محمداً فلا تجده، فتعلم أنه لبس الرداء الخشن، وأخذ زاداً من جريش الشعير وقليلا من الملح والزيت أو التمر الذى كان يحبه، وحمل ما يروى ظمأه من ماء زمزم، ثم سلك طريق المدرج عن شمال عرفات.

كان يصدها العقل والحياء، فلا تسأله عن شئ من أمره، بل تخلى بينه وبين نفسه، وهنالك فى أعطاف الغار وبين الشعاب طابت له العبادة والزهادة، متحنثا فى الغار الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى خديجة وبناته بالمودة والحنان متزوداً من محبتهن لمثل لياليه السابقات فكان يرنو إلى السموات العلى، مشوقا متلهفا، ويجتلى من آيات ربه نوراً يتراءى له بين الأرض والسماء.

سبحانك اللهم هذا نبيك الموعود ورسولك المرصود يتفكر فى خلقك ويلتمس لقومه خيراً مما هم فيه.

ويحدث خديجة برؤياه الصادقة، فما كان يرى شيئا فى المنام إلا تحقق فى اليقظة، وأخذت تطوف بضميره الخواطر وتنازعه نفسه إلى صرف قومه عن السوء والبغى، فيتراءى له النور، ويعتريه القلق والوجل، ويمضى إلى زوجته خديجة يحدثها بما يرى، فتبشره بالنبوة، وتثبت قلبه، وترفه عن روحه، ثم تدلف إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فتسر إليه حديث محمد، ويجهر هو بتأويل ما حدثته به فيقول لها:

- لقد جاء محمداً ما كان يأتى موسى من قبل.. وإنه لنبى هذه الأمة.

وهذه ليلة حامية حرور من ليالى أم القرى، لا ترى فى ظلامها غير النجوم الشاحبة، ولا تحس إلا النسمات الفاترة من وراء النخيل، وخديجة عند كوتها المعهودة، ترتقب عودة محمد وقد أرسلت إليه بعض رجالها فاستسلمت إلى خواطرها، وعتد خيالها على جناح الذكرى إلى ماضيها البعيد، إلى اليوم الذى احتفلت فيه قريش بعيد لها، وكانت خديجة بين النساء عند وثن من الأوثان، فتصدى لهن أحد الأحبار منادياً:

- يا نساء تيماء: سوف يكون فى بلدكن نبى يقال له محمد، فأيما امرأة أتيح لها أن تكون له زوجاً فلتفعل..

فرجمته النساء بالحجارة وأغلظن له القول إلا خديجة، فإنها أطرقت وكأن شيئاً وقع فى قلبها من تلك النبوة الموعودة، وما تزال خديجة سادرة فى ذكرياتها، حتى يعود محمد من خلوته البعيدة، وقلبها يؤكد بأنه الرسول المرصود.

وإنه ليرجع ذات مساء من مجتلاه، فيتراءى له الروح الأمين ويحسه لا بشراً سوياً ولا خيالا أو رئياً، وإنما يسمع حفيفا لطيفا، وخفقا رقيقا كخفق الأجنحة، طوافا من حوله حواما عليه، يسمعه ولا يدركه، ويحسه فلا يتبينه، وإذا صوت ندى وادع يناديه: يا محمد..

- «اقرأ باسم ربك الذى خلق* خلق الإنسان من علق».

فوجف محمد ووقف فى مكانه لا يتقدم ولا يتأخر، وسرت فى جسمه رجفة اقشعر لها بدنه، فتحامل على نفسه وجعل ينحدر فى طريقه ذاهلا مرعوبا، متمتما بهذه الآيات التى تلقاها، حتى إذا بلغ مأمنه أقبلت عليه خديجة دهشة حيرى، إذ رأته على غير ما ألفت منه، وهم بالكلام، فلم يستطع، فأخذ يغمغم خائفا:

زملونى.. زملونى..

فسارعت خديجة تدثره وتزمله، فإذا هو ينهض بعد قليل هادئا مطمئنا، فتنضو عنه ثيابه التى بللها العرق، وقد تضوع منها ريح كأحسن الطيب.

ويستوى محمد فى جلسته كاشفا لخديجة عن سره المكنون، ويقرئها وحى الرسالة فتؤمن به وتترفق، وتؤيده بحبها وحنانها قائلة:

- أبشر يا محمد واثبت.. فو الذى نفسى بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.. ولن يخزيك الله أبدا، إنك لتصنع الخير، وتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتعين على نوائب الدهر..

كان فؤاد خديجة أول فؤاد خفق إيمانا بمحمد، فرفدت بخفقاته قلبه، ووكدت رسالته، ولقد تردد صدى صوته الأول، بين جوانحها بأول ما تنزل عليه من القرآن فكان لها على الرجال فضل السبق إلى الإسلام.

ويخرج محمد من صمته وعزلته، وينهض برسالته بشيراً ونذيراً، فيدعو قومه للحق والخير وينهاهم عن المنكر والباطل، فيستجيب له الضعيف والملهوف ويتأبى عليه المارد والمكابر، ويمتنع العاتى والماكر، ويدرك العقلاء من قريش أن محمداً وإن لم يمسسهم بسوء فإنهم يخشون على المألوف من أوضاعهم وتقاليدهم أن يبدلها دين محمد ويحولها، فهو يدعو إلى المساواة بين الحر والرقيق وبين الغنى والفقير، فكذبوه وعذبوه، وخذلوه في دعوته، فما تحرف ولا تخوف، وخديجة من ورائه تشد أزره، وتهون عليه ما يلقى من مكروه وعمه

يأسى عليه ويحميه، ويرد عنه السوء، ولكن محمداً وقد ضاق بأعدائه الذين يأتمرون به ويصحبه المؤمنين، فإنه ليلتمس التأييد والمؤازرة من أنصاره بمكة، ويشد عضده بالأبطال الذين أحبوه وكانوا فى عونه ورسالته.

وكان عمه أبو طالب سيد قومه محبوبا مهيبا، فلما مضى محمد فى دعوته سراً وعلانية غضب الملأ من قريش، وقالوا متلاومين ناقمين:

ما نرى إلا أننا مددنا فى وهمه، وطولنا له فى زعمه، فهو يدعى أنه يتلقى أخبار السماء ليبلغها للناس، ويدعوهم إلى بدع من الأمر، ما سمعنا بمثله فى آبائنا الأولين..

وراحوا إلى أبى طالب غضابا عاتبين، فطلبوا إليه أن يكفيهم محمداً أو يكفه عما يفرق فيه بين المرء وزوجه، ويجمع بين الحر وعبده، وإن لم يستطع فليخل بينهم وبينه، فإنهم رادوه عما فتن به قومه رداً عنيفاً لاهوادة فيه ولا تأجيل.

فسار إليه أبو طالب وكلمه بشأنهم فقال محمد:

- والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك فيه..

وفاضت دموعه حزنا، فأشفق عليه عمه وأدركته خشية على ابن أخيه، من هؤلاء الماكرين الغادرين، فهم يسوءونه فيه وهو يوادعهم تارة ويردعهم أخرى، فكان أبو طالب دريئة لمحمد ومفزعا له، ومحمد مشفق مما يلم بعمه من أجله، ولكن لا معدى له عن أن يلوذ بكنفه ويعوذ بمروءته وإن كلفه حرجا وأرهقه عسراً وجدلا.

ذلك كان دأب عمه الحنون الوقور، فإذا أقبل محمد على بيته مثقلا بأحزانه، وجد البشاشة على وجه خديجة، فخففت عنه شجونه، ونسى كل شئ دون البيت، ثم خف إلى بناته الوديعات يمس رءوسهن، ويمسح عليها بيده المباركة.

وما أكثر مالقى بعد عمه أبى طالب، من عنت قريش وعتوها، فغدا بيته موضعا للسلوى والرجاء، فإذا ضاق بالخطوب شكا إلى خديجة بثه وهمومه فهونت عليه بلواه، وعاد أقوى مراسا وأشد عزما.

وما هاله إلا الموت الذى أخذ عمه وتركه وحيداً فى أهله المعنفين المكابرين، فأحس وحشة وهما، وقد كشف عنه وخلاه غرضا لسهام أعدائه، فازداد ركونه لخديجة وتعلقه بها فهى الودود الولود التى آمنت به من قبل ووهبت له حياتها وتركته لسجيته ورجاوته فى التأمل والعبادة والإلهام.

وياهول ماراعه حين ماتت أم أولاده، فقد أحس أن كل شئ خلا عنه فى الحياة إلا ربه الذى اصطفاه لإكمال دينه، وإتمام نعمته، فهل كان فى وحدة حزنه بعد هاتين المصيبتين يذكر غير عمه الذى كفله ورعاه، ويبكى غير زوجته التى كانت طوال خمس وعشرين عاما ملاذه وحماه؟ وقد ملأت بيته مودة وأنسا ببناتها الحنونات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

فلما فقدها لجأ إلى شفاء روحه، فأحب حبيب خديجة وقرب قريبها، فكان يطعم الكلالة من مالها ومواليها، وقد أدخل قلبه فى معتكف الأحزان طوال عام سماه عام الأحزان.

ووجد الأعداء فى حزن محمد عليه السلام لوفاة زوجته وعمه ما أرث العداوة والضغينة فى صدورهم، إذ لم يطفئها من قبل حصار ولا تشريد أو تنكيل، وقد هالهم ثبات الذين فروا إلى المدينة بإيمانهم ودينهم فآثروا الهجرة وفراق السكن والأرض التى ضمت الأحباب.

وكانت هذه الهجرة بمشقاتها ومعاركها نقطة انطلاق وانقشاع ظلمات بعضها فوق بعض حتى عمت الآفاق ودوت دعوتها فى القريب والبعيد وقد بدأت سراً وتباعاً وبدهت أعداءها بما لم يكن فى حسبانهم، فمن صبر على أذاهم عجيب إلى انفلات الثائرين والمؤمنين إلى «الحبشة» وأطراف الحجاز.

فلما ماتت خديجة كانت الرسالة قد انتصرت بتعاليمها وآياتها وبذل الفداء لها والوفاء.

وقد أغمضت خديجة عينيها إلى الأبد بعد أن شهدت المعارك فى سبيلها والضحايا، ونعمت بنصر الله فقد نصرته بإيمانها برسوله وبذلها المال والمعروف للمؤمنين المعوزين والأرقاء. وكان منهم زيد بن حارثة الذى عطف عليه محمد وآثره وطلب إلى زوجته خديجة أن تعتقه ليتبناه على عادة العرب، واستبقاه لديه كولد له حتى دعى زيد بن محمد، وكان ثانى المسلمين من الغلمان بعد على بن أبى طالب.

ولئن تزوج محمد بعد خديجة لأسباب اقتضتها رسالته ودعوته، فلم يكن لينسى خديجة، وبالرغم من إعجابه بنسائه الصبايا والمسنات، وفيهن عائشة كالزهرة، وزينب كوجه الصبح ومارية كنسيم الإسكندرية وأم سلمة كأنوار الحكمة، أما خديجة فلم يبدله الله خيراً منها، وطالما كانت عائشة تغار منها وهى تحت التراب أكثر مما غارت من أزواجه ضراتها اللاتى كن يعشن معها، وينفسن عليها هذه المكانة التى تلقاها من رسول الله دونهن.

وبقى رسوله الله وفيا لذكرى خديجة، حفياً بأهلها، لم يملأ قلبه بمثل ما ملأت، فقدت آمنت به حين كذبه الناس، وواسته بودها ومالها، حين تخلوا عنه وحرموه، ورزق منها بنيه وبناته، وكانت الزهراء أنضر الزهرات التى عمت ثمراتها دنيا العرب، وعبق التاريخ بطيب ذكرياتها وفداء ولديها، وكان الحسين منها حامل راية الشهداء وكرامة الأبطال.

سودة بنت زمعة

(العامرية)

«والله مابى على الأزواج من حرص، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك»

من كلام السيدة سودة بنت زمعة للنبى ﷺ

آلمت الرسول وفاة خديجة، فأحس بعدها وحشة ممضة، وكان ينظر إلى بناته ووجومهن فيزداد ألماً وهماً، وتصل إليه أخبار السفهاء والأعداء وهو فى قلقه وحزنه فيأسف. حتى نزل بالصحابة وكبار المؤمنين والمؤمنات كثير من النكبات فوافق الرسول بعضاً منهم على الهجرة والفرار من مكة إلى الحبشة التى كان يحكمها النجاشى المسيحى الذى سجل له التاريخ مجداً ومآثر بالعدل والسلام.

لقد انطلق نفر من الذين ضاقوا بأذى قريش إلى الأرض البعيدة فركبوا البحر وقطعوا البر بدينهم وإيمانهم ليخلصوا من عدوان المعتدين وطغيان المكابرين.

وفى حماية المليك الحبشى وجواره لقى اللاجئون إليه رعاية كريمة، غير أن الطغاة من قريش ثاروا وافتروا لهذه الهجرة وحسبوا حساباً لما قد ينشأ عنها فأرسلوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة إلى النجاشى والرهبان بأن يعاونوهم على رد الذين فروا إليهم بدين جديد يأباه قومهم، فأبى الحبشان أن يستجيبوا لما طلب الرسولان حتى يسمعوا قول المهاجرين، فدعى هؤلاء للمثول بين أيدى النجاشى ورجال دينه، ولما وقفوا آمنين سألهم بلسانه ولغته:

- كيف فارقتم دين قومكم وجئتموتى بما لم تدخلوا به فى دينى؟

فأجاب جعفر بن أبى طالب:

- أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وأمانته، فدعانا لتوحيد الله وعبادته وترك ما كنا عليه من عبادة الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم والجوار والكف عن الدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات.

فعرفنا هذا الرسول وهو محمد بن عبدالله واتبعناه وعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا، فهاج قومنا وغضبوا ونكلوا بنا ليردونا إلى عبادة الأصنام، ولما ازداد بطشهم وقهرونا بطغيانهم فررنا بديننا الجديد إلى جوارك الكريم على بعد الدار والمزار وطول الشقة.

فقال النجاشي: أتحفظون كلاما مما جاء به رسولكم؟

فأخذ جعفر يتلو عليه آيات من سورة مريم، فيها ذكر المسيح، هش لها الحبشان ومليكهم ودار حولها تحاورهم، ولما أحس ابن العاص أن هؤلاء الغرباء لم يقتنعوا بما قال فى المهاجرين الفارين وقد أعجبهم ما سمعوا من جعفر جعل يحرضهم على طرد الذين جبهوه بالحق، وذلك بدس الريبة بين الإسلام والمسيحية وهما متلاقيان مؤتلفان، فرفض النجاشي طلبه ولامه على استمساكه وقومه بالوثنية قائلا له:

- هؤلاء الذين لجئوا إلينا بدينهم هم فى حمانا ومعنا، وإن لم تربطنا بهم روابط لسان أو نسب.

وكان فى هؤلاء المهاجرين بعض النسوة ممن رافقن أزواجهن راضيات بما صادفن من المتاعب، وهن من الفضليات السابقات إلى الإسلام، فيهن سودة بنت زمعة وقريبات لها عامريات، وكان زوجها السكران بن عمرو العبشمى من الذين أمضهم فراق مكة على ما لقوا فى الحبشة من رعاية وأمان، فلما علم وصحبه بأن رسالة الرسول فى غيابهم عن مكة فتحت قلوباً كانت مغلقة ورفعت عن أعين الغاشمين ظلمات الكيد والعناد، عاوده الحنين إلى أهله ووطنه وإن لم يغب عنهما إلا بضعة أشهر، فحزموا أمرهم على العودة إلى حماهم الأول ورسولهم الأمين معتزين بإسلام عمر بن الخطاب الذى كان من أشد قريش عتواً وبطشاً بمن آمن بمحمد، لكنهم ما كادوا يدخلون مكة حتى شعروا بأن العدوان على أمثالهم لم ينقطع وأن فى قريش من لا يزال يهدد محمداً وصحابته ولا يتورع عن إيذائهم.

على أن السكران زوج سودة عاد عليلا مضطرباً لم تطل به العلة فقد اشتدت حتى قضى فحزنت سودة عليه وبكته طويلا ولولا مواساة صواحبها لشق العزاء فيه.

وتلقى الرسول رجعة المهاجرين بالإشفاق والأمل فقد استراح إلى انطلاق رسالته وخروجها من مكة إلى الحبشة وإن وجد المكايد فى سبيلها، والوحشة من أجل حامليها، وحين عاد أكثرهم وانضم إليهم عمر بن الخطاب غدا موقف قريش منهم غير الذى كان، فإذا شغلت هذه الحوادث الكبرى محمداً فإنها أنسته زوجته التى حملت معه هموم العيش والرسالة، فلما فقدها تفقد أنسها وعونها، وتفقد عمه أبا طالب الذى رعاه صغيراً وأيده كبيراً.

كان صحب محمد يرجون له ما يخفف عنه اللهفة واللوعة بعد خديجة بزواج يعيد لبيته وبناته السلوى ويؤنس وحدته إذا خلا إلى نفسه، ولم تكن نساء الصحابة أقل تساؤلا عما يزحزح الكآبة عن بيت الرسول حتى أقدمت خولة بنت حكيم رفيقة سودة فى الهجرة إلى الحبشة وزوجة عثمان بن مظعون أحد العائدين منها ليشاركوا فى عبء الجهاد والدعوة.

لقد مضت خولة إلى مجلس محمد تحييه برجاء وتقول له بشجاعة وحنان:

- كأنى أراك يا محمد وقد دخلتك خصلة لوفاء خديجة، هلا تزوجت وعدت إلى ما كنت فيه من بشاشة؟

فهز الرسول رأسه وقال:

- وهل مثل خديجة تستبدل؟

فقالت خولة: يرحم الله خديجة.. ليس كمثلها فى نساء قريش من تحل محلها، لكنك يارسول الله تحس الوحشة بعدها، فما قولك بزواج يرضيك؟

فتبسم محمد وقال لبنت حكيم:

- ومن تريدين لى يا خولة؟

فأجابت وكأن تدبيرها سبق سعيها:

- لا أجد أجدر بك من عائشة بنت صاحبك أبى بكر.

فهش الرسول وقال:

- هذه صغيرة ياخولة، وبيتى وحياتى يتطلبان تدبيراً من كبيرة.

وخطرت ببال الرسول هذه الطفلة التى كان يراها فى بيت أبيها تتوقد ذكاء وتتكلم بما يدل على أن فطنتها تسبق عمرها. وذكر محمد وخولة بين يديه صداقة أبيها وعونه وتأييده فود لو تكون عائشة رابطة قربى ولكن..

وحين قطع الرسول كلامه قالت خولة:

- لا تدع أحداً يسبقك إلى عائشة، تستطيع أن تخطبها وتمهل أهلها حتى تكون لك أهلا، والآن عليك بكبيرة ترعى بيتك وتحنو على الزهراء.

فسألها الرسول:

- هاتيها، على أن تكون منا وفينا؟

قالت خولة: هذه سودة بنت زمعة، وإن جاوزت صباها وخلت ملامحها من الجمال فإنها رزان مؤمنة، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها السكران وذاقت الويل فى الذهاب معه والإياب حتى مات عنها وتركها حزينة مقهورة، لا عون لها ولا حرفة، وأبوها شيخ كبير تأبى علينا..

ولم تكد خولة تتم كلامها حتى شكرها الرسول وأحس أن محنة سودة تهددها فى دينها، فلماذا لا يضمها إليه وتعيش فى كنفه زوجة معززة مكرمة؟

على أن خولة بنت حكيم ما كادت تتلقى جوابه بالرضى حتى سارعت إلى بيت أبى بكر تطلب عائشة زوجة للرسول على أن ينتظر حتى تتهيأ له وتعينها السن على الحياة معه.

وسعت خولة إلى بيت زمعة بن قيس وكان مكفوفاً مضعضعاً يتوكأ على عصاه من شيخوخة وعياء، فلما ألقت عليه تحيتها الطيبة سألها:

- من تكون صاحبة التحية؟

فأجابت: خولة بنت حكيم السلمية، وقد أرسلنى محمد بن عبدالله أخطب سودة زوجة له..

فنادى زمعة بنته الأرملة الحزينة وقال لها:

- تزعم خولة أن محمداً أرسل يخطبك فإذا أحببت أن يكون لك زوجاً دعوناه إلينا.

وكانت سودة بنت زمعة تعلم أن فى هذا الزواج مواساة لها وتكريماً لصبرها وجهادها، فدخلت بيته ليعول عليها برعاية صغيرته الزهراء وشقيقاتها زينب ورقية وأم كلثوم.

وانصرف الرسول إلى دعوته مطمئن الخاطر راكناً لتدبير سودة ورصانتها، وإيمانها به رسولا وزوجاً، كرمها بعطفه ورحمته وآواها، وقد أسعدها أن يجعلها بهذا التكريم أم المؤمنين، فلما دخلت عائشة بيت محمد زوجة محبوبة مرتقبة تملأ الأعين بصباها ومرحها وذكائها شاءت سودة أن تتخلى عن مكانها فى بيت محمد، فهى لم تأخذ منه إلا الرحمة والمكرمة، وهذه عائشة تدنيها من الرسول مودة وإيثار واعتزاز بأبيها، وملاحة يهواها الرجل وقد أنس محمد لمرحها وصباها فى بيته فانقبضت سودة وبدت فى بيت زوجها كالسجين. ولما جاءها يوماً وسألها إن كانت تريد تسريحا، وهو يعلم أن ليس لها فى الزواج مأرب إلا الستر والعافية وهما فى عصمة الرسول ونعمة الله.

قالت سودة وقد هدأت فيها غيرة الأنثى وإن بلغت مطالع الشيخوخة:

- يارسول الله، ما بى من حرص على أن أكون لك زوجة مثل عائشة، فأمسكنى، حسبى أن أعيش قريبة منك، أحب حبيبك وأرضى لرضاك...

ووطدت سودة نفسها على أن تروض غيرتها بالتقوى وأن تؤثر عائشة على نفسها بعد أن تزوج الرسول حفصة بنت عمر بن الخطاب جبراً لخاطرها المكسور بعد وفاة زوجها وسنها لم تجاوز الثامنة عشرة وأبوها يريد أن يعصمها من الفتنة فعرضها على صاحبيه أبى بكر ثم عثمان، ولم يكن تعدد الزوجات ولا تفاوت الأسنان بينهن بالأمر المنكر، ومحمد يصطنع فى رسالته ما يشد عضده ويؤيد دعوته فى هذا التعدد.

على أن سودة هانت لديها الحياة مع ضرتين نديدتين كلتاهما يعتز بأبيها الرسول كما يعتز بعلى وعثمان، لكنها كانت أقرب إلى عائشة ترضيها لمرضاة زوجها وإن لم تضق بمن جاءت بعدها وبعد حفصة.

ولم تنس سودة نفراً من قومها نفرت منهم لتأبيهم على الرسالة فإنها رقت لأسراهم يوم بدر وحزنت على القتلى منهم ولما رأت أبا يزيد سهيل بن عمر أخا زوجها السكران مضمومة يداه إلى رقبته بحبل لم تملك نفسها فصاحت:

- أين أبا يزيد؟ أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم، ألا متم كراماً؟

ولم تكن سودة تعلم أن محمداً كان يسمعها فقال لها:

- ياسودة أعلى ربك ورسوله تحرضين؟

فاستحيت سودة، وقالت: يارسول الله، والذى بعثك بالحق، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مضمومة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت.

فتبسم الرسول ووعدها خيراً بشأن الأسرى حتى اتفق أصحابه على قبول الفداء من أجلهم.

وبقى محمد براً بسودة يعاملها بالرفق والرحمة ويستمع لفكاهتها الطيبة، وحكمتها الموهوبة.

ولما اعتزم حجة الوداع أخذها مع زوجاته إلى مكة لتؤدى هذه الحجة مستأذنة فى رمى الجمرات بالمزدلفة قبل الازدحام فى موعدها .

وامتد العمر بسودة إلى أيام عمر بن الخطاب فى خلافته، فأكرمها وأرسل إليها ما يعينها على العيش، فتقبلت معونته بالشكر والدعاء، ولم تشأ أن تستبقيها لنفسها ، وقليل منها يكفيها فوزعتها بين المحرومين والمعوزين. ولم تقطعها سيدات قومها وفيهن نسوة الرسول وجاراتها حتى كانت وفاتها بعد عمر طويل عرفت فيه بأنها من أمهات المؤمنين.

عائشة بنت الصديق

«خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»

من حديث النبي ﷺ

لقد انطلق أبو بكر الصديق من فوره بعد صلاة العشاء، فما تلكأ مع صحبه. ولم يمض إلى حيث يسمر بعضهم، بل دلف إلى بيته مبكراً على غير عادته، فقرأت زوجه أم رومان على ضوء السراج ملامح وجهه وتبينت فيها بشاشة يغشاها قلق، ولما استقر فى مجلسه صامتاً سألته:

- كيف كان أمرك مع جبير بن مطعم ووالدته؟

فتبسم أبو بكر ابتسامة الظافر وأجابها:

- نجانى الله من نقض العهد والتخلى عن وعد قطعته، إذ صارحت اليوم مطعم بن عدى والد جبير بالأمر الذى بينه وبيننا، فقلت له:

- ماذا تعتزم بشأن جبير وعائشة؟

وجم مطعم ولم يحر جوابا، وجعل يغمغم كلاماً لم أتبين منه شيئاً. فتصدت له زوجته ورفدت قوله بحيرة تلجلجت فيها وقالت:

- نخشى يابن أبى قحافة أن تصبئ جبيراً وتدخله فى دينك إن زوجناه عائشة!

ولم يكد يستقر هذا الحوار فى سمع أم رومان حتى استخفها الفرح فقالت لزوجها:

- الحمد لله الذى نجاك من إخلاف الوعد، وما أخلفت عمرك وعداً، فهذه بنتك عائشة قد أذهب الله من طريقها جبيراً وأهل جبير، فادفعها إلى رسول الله تلق الخير والبركة.

وصاحت بصوت يغالبه الاعتزاز والفرح:

- على بعائشة... أين عائشة؟

فقال أبو بكر:

- مالك ولها؟ دعيها بين إخوتها، واملكى نفسك يا أم رومان، فما أحسب إلا أنك خرجت عن طورك.

- كيف لا أفرح بهذا الشرف الذى يزيدنى مجداً بقرابة الرسول بعد صداقته؟

●●●

كان من مآثر خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون، أنها أخرجت بتدبيرها ولباقتها نبيها محمداً من عالم أحزانه إلى دنياه المحيطة به، فهو يبدى ابتساماً لصحبه، ويقبل على صلاته ومجلسه وضاح الجبين مشرق القسمات، ولكن فى قلبه شجواً عميقاً لم يفارقه منذ فارقته خديجة، فإذا خلا إلى نفسه أو فزع إلى بيته، تبرم بوحدته وضاق بأعدائه، فطافت بخاطره خديجة التى كانت له مفزعاً ومعواناً، ونظر حوله، فذكر أنها كانت تقعد هاهنا وتشرب بهذه الكأس، وتجلس على هذه الوسادة..

كذلك ألهم الله خولة أن تتقدم إلى نبيه الكريم وتخرجه من شجونه فقالت:

- أفلا تزوجت يارسول الله لتسلو بعض حزنك وتؤنس وحشتك بعد خديجة؟

فسألها:- من تريدين ياخولة؟

فأجابت:- سودة بنت زمعة أو عائشة بنت أبى بكر.

ومضت خولة إلى أم رومان، فحدثتها برغبة الرسول فى عائشة، ولما أقبل الصديق وسمع حديثها تبسم وقال:

- كيف تجوز عائشة للرسول وهى بنت أخيه؟

فراحت خولة إلى النبى تستفتيه، فكان جوابه:

- إن الصديق أخى فى الدين، لا فى الرحم، وبنته حلال لى.

ففرحت أم رومان وتقبل الصديق خطبة صفيه ونبيه بهزة اعتزاز، فقد أمسى فى حل من وعده الأول ونجا من حرجه وحيرته.

وجلست أم رومان مبتهجة جذلى، تذكر تحت المساء فضل خولة فى مسعاتها الطيبة، ويستجيب لها زوجها الصديق ويتلطف ويمضى فى حديثه عن النبى الكريم الذى أحبه وآثره، وصاحبه وبره، ويوده لو يفتديه بالروح، وحمد الزوجان لخولة رأيها وسعيها، ولكنهما ذكرا أن عائشة ستغدو زوجاً للرسول وهى فى سن صغيرة تلعب مع لداتها، أمثل عائشة تليق بالنبى وتدبر بيته وترعى بناته على حداثتها؟

بمثل هذا القول كان يتحدث أبو بكر وزوجه أم رومان فانتهيا إلى أن عائشة أوتيت على حداثتها ملامح النساء الرصينات، ومايهم صغر سنها فقد ينتظر الرسول تفتحها ونضجها بضع سنين.

وكانت عائشة بيضاء موردة الخدين ممشوقة القد، خفيفة اللحم ودون اليفاع، وقد اختلفت الروايات فى تحديد سنها التى جاوزت العاشرة وقت الزواج.

ولعل أمها رقت لها، وقبلتها وفدتها، بمثل ما تفدى به كل أم بنتها فى تلك الفرحة. ونظر إليها أبوها نظرات الحنان والإشفاق، فملأ عينيه وقلبه منها، فهو يرعى هذه الزهرة فى روضته حتى يحين قطافها.

وقدم الرسول أربعمائة درهم صداقاً لعائشة كصداق بنته الزهراء وكان زواجها فى العام الثانى للهجرة، فوجد النبى فى هذه الزهرة، ريحانة عطرة، وقد انتظرها حتى وافت نضرتها فنقلها من روضة أبيها إلى بيته، ورآها النبى كأمها التى قال عنها: إنها من الحور العين.

ولما جلت عائشة فى بيت محمد أحست بما تحس به كل فتاة من لداتها تترك بيت أهلها الذى ألفته إلى بيت لا تعرفه، ولكن الرسول غمرها بالحنان، وأضفى عليها من حبه وأنسه ما أنساها وحشة الانتقال من عناية الأبوين إلى عناية الزوج الرءوف، وقد أدركت بذكائها أنها أصبحت زوجاً لأعظم رجل فى قومها، فشاع فى نفسها كبر بغير زهو، وودت لو تعجلت السنين ليستتم صباها وتنضج أنوثتها فتغدو كبرى النساء وأحدوثتهن المثلى.

ولا تلبث عائشة أن يعاودها الحنين إلى لداتها وصواحبها. فتدعوهن إلى بيتها، ليتسلين معها فى غيبة زوجها، وقد يضربن على الدفوف ويجتمعن للغناء، فإذا باغتهن الرسول حبسن أصواتهن وأمسكن أيديهن حياء منه وخوفاً، فيضحك لهن وينادى عائشة أن يعدن لما كن فيه من لهو ومرح، حتى يرد إلى نفوسهن هدوءها وفرحها.

وكان يقع مثل هذا من عائشة وصديقاتها فى السنة الأولى من زواجها، فلم يكن يؤاخذها الرسول، بل كان يترفق بها ويوادعها، ويحرص على سرورها، فترفع صوتها فوق صوته، ويجيبها بصوته الهادئ الحنون، فإذا تكلمت على سجيتها وتجملت هش لها الرسول وداعبها، وأحس البر والرحمة والحنان.

وقد يأتيها أبوها، فتبقى على سجيتها تتكلم بدلال، وربما رفعت صوتها أو جادلت، فيضحك الرسول ولكن أباها ينهرها ويؤنبها ويهم بضربها، فيرده النبى عنها بحلمه وحنوه، ويحميها بيديه الكريمتين قائلا:

- دعها يا أبا بكر. فليس أحب إلىّ من تدليلها!

وقد أذن الرسول ذات مرة لفتيان الحبشة أن يلعبوا بحرابهم بين يديه، فدعا عائشة، ووطأ لها عاتقه وحاط وجهها بيديه، لكى يشهدها تلك اللعبة، وبقيت تتطلع وتشرئب بعنقها وترقب براعة الفتيان، حتى اكتفت وسئمت النظر إلى ذلك اللعب بالحراب، ثم وقفت تستريح وعادت يحوطها الرسول بحنانه وحمايته، وينفذ لها رغبتها هادئ النفس طويل البال.

كان الرسول فى مستهل زواجه بعائشة يمزج حبه لها بشعور أب رحيم وزوج بر حليم. إذ كان فى عمر أبيها، فلقيت عنده الرفاهة والدلال، ونعمت بمودته وحديثه فأفادت خيراً كثيراً. ولم تلبس هذه العشرة أن مضت فإذا بعائشة ناعمة الملامح ظريفة الكلام متألقة الأنوثة والذكاء، وما كانت لتبقى فى لهو الحداثة وهى فى عشرة الرسول ووقاره وفى تفكير عميق يتوقد، فأخذت تحفظ القرآن وتتفقه فى الدين، ولا يفوتها مجلس الرسول الذى اختص به المؤمنات، يجيب السائلة ويعلم الجاهلة، حتى وعت عائشة أحكام الدين وآداب القرآن، فكانت تنوب عن النبى فى كل فتوى سئلت عنها وتحرجت منها النساء، وقد أخذ عن عائشة أم كلثوم وابنا أخيها محمد القاسم وعبدالله، وروت عنها حفصة وأسماء بنتا أخيها عبدالرحمن، وكان أكثر الرواة عنها أحب الأقربين إليها عروة بن الزبير وأخاه عبدالله البطل ابنى أختها أسماء بنت الصديق.

وكان عروة شاعراً، ما نزل بخالته شيئاً إلا قال فيه شعراً، حفظته هى وأنشدته، وتمثلت به راضية راوية.

ومضى محمد قدماً فى نشر دعوته، فإذا عائشة تخطو مثله فى تبليغ رسالته وتأييد سنته، وتفقه من أحاديثه ومأثوراته ما أعدها للتعليم وساعدها فى التوجيه والتبصير.

لقد شغلت حياتها فى توطيد الإيمان وتثقيف النساء وإرشادهن، ومافتئت تبلغ الرجال ماوعت من الحديث، حتى أتى عليها حين كانت فيه حجة فى الرواية عن الرسول، ولعل فضلها فى العلم كافأ فضل خديجة فى التدبير والمال إذ كانت معواناً له على تعليم الناس أمور دينهم وردهم إلى الخير والهدى والصلاح.

ولم يكن حفظها للحديث بغير وعى لدقة مراميه، وإنما كانت عائشة واقفة على تاريخه ودواعيه، مما أعيا على الصحابة والتابعين، فما أشكل على

الفقهاء والعلماء أمر إلا فزعوا إلى عائشة وسألوها عنه، فوجدوا عندها علماً فيه، فكانت أفقههم فى الدين وأعلمهم بأحكام الشريعة وآدابها ولم يكن بين أصحاب الرسول من هو أروى منها ومن أبى هريرة، على أنها كانت أسبق منه وأوعى، وطريقتها فى التفهيم والتعليم لاسيما للنساء أحكم وأوفى.

ولئن قنعت عائشة فى حياتها الزوجية بمودة محمد الذى كرمها بأن تكون أم المؤمنين إذ لم توهب ولداً فإنها لم تقنع بما تلقت من معرفة فى بيت أبيها الصديق الذى كان أدرى قومه بأنساب العرب ومزايا كل عشيرة وقبيلة، فلما تزوجت الرسول ازدادت علماً بما تعلمت وأخذت معرفتها تتسع وتشمل كل ما يتصل بالقرآن والحديث والرواية والتاريخ.

وكأن محمداً إذ ترك عائشة تمضى على رسلها وسجيتها فى وعى العلم وحفظ الحديث والسنة! إنما كان يريد أن يجعل منها للمؤمنات أسوة حسنة ليكون طلب العلم فريضة عليهن مثل الرجال، وفى هذا رد بالغ وحجة دامغة على من يقول بتجهيل المرأة وتزهيدها فى العلم والتعليم.

وكفى عائشة مجداً أن يجعلها الرسول زعيمة الرواة فى الفقه والدين فيقول للمسلمين.

- خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء...

وكان ذكاء عائشة وعلمها، وغرارة سنها وملاحتها، ومكانة أبيها وتقوى أمها، أسباباً حببتها إلى الرسول، وقربتها إلى قلبه، ولكن هذا الحب والإيثار لم يمسكا محمداً عليها، فقد كانت الرسالة والدعوة تقتضيانه أن يصهر لبعض العشائر والقبائل تأليفاً للقلوب وتوطيداً للإيمان، فتعددت زوجاته، غير أن عائشة كانت بينهن جميعاً هى الفضلى، إذ انفردت فى بيت النبوة بفضائل لم تتوافر فى غيرها من نساء الرسول، وحسبها أن الوحى كان يأتيه معها دونهن فعدل بين زوجاته وابتغى مرضاتهن، ولكن قلبه- وهو الإنسان- لم يبلغ العدل

فى حبه فآثر عائشة وتعلقت هى به وغارت عليه من أترابها وضراتها، وربما كانت غيرتها من ذكرى خديجة أقوى حدة وأبقى على الأيام.

فإذا رأت عائشة محمداً يبر أحداً من أجل خديجة، لم تتماسك ففلتت من لسانها فلتات الغيرة وقالت:

- لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة!

وكانت أم سلمة زوج الرسول غيوراً، ولكن دون غيرة عائشة، وهى التى حذرت منها محمداً حينما جاءها خاطباً، فشاء الرسول أن يذهب غيرتها، فكان يوافيها ويداريها، ويرعى أولادها ويحدب عليهم، فبلغ عائشة ما يفعل النبى فلما أبطأ عليها ذات مساء سألته:

- أين كنت يارسول الله؟

- كنت عند أم سلمة..

وفلتت من فم عائشة كلمة كل امرأة غيور، فقالت:

- أما تشبع من أم سلمة؟

فلم يجد محمد بداً من الترفق بها والتعلق بمودتها، ليسليها عما فاض فى نفسها من غيرة النساء، لكن هذا الرفق والملاينة لم يثنيا عائشة عن العتاب والإدلال بمكانتها، فقالت للرسول:

- أنا لست كأحد من نسائك يارسول الله... كل امرأة منهن كانت عند رجل، سواى...

فتضاحك الرسول وأشفق عليها من غيرة جامحة، ولم يكد يردها عنها برفق ولين، حتى تحدر على وجهها الناصع دمع غزير تفجر فيه حزنها المكظوم، ويبلغ هذا الحزن قلب الرسول فيرثى لها من غيرتها ويدعو الله أن يذهبها عنها...

ودبت الغيرة وهبت فى نساء النبى حين ولدت مارية القبطية المصرية «إبراهيم»، ففرح الرسول به وأخذت الغيرة زوجاته، لهذه الأمومة التى رفعت مارية إلى مقام أمهات المؤمنين، وأدرك الرسول أن عائشة تتواطأ وبعض زميلاتها فيأتمرن به لصرفه عن إحدى شريكاتهن، فآخذهن محمد كعادته فى صوته الهادئ مؤاخذة فيها مواساة وتخفيف، وفيها مداراة وتثقيف.

وعز على عائشة أن تحرم الولد وفى زوجات النبى ذوات النسل من غيره قبل أن يبنى بهن، فتحرق فى قلبها شعور الأمومة والشوق إلى الوليد، ولئن أوتيت عائشة الملاحة والعلم والنسب، وكانت زوجاً لرسول الله فإن كل هذا لم يغن أنوثتها عن طلب الأمومة، والتلهف عليها.

فياله يوماً كان شديداً على عائشة، دفنت فى سويداء قلبها حرقتها ولهفتها، إذ رأت إبراهيم ابن زوجها من مارية القبطية، وقد حمله الرسول بين يديه مشغوفاً به متعلقا. فأقبل به نحوها وقال:

- انظرى يا عائشة.. أليس إبراهيم شبيهاً بى؟

فتململت عائشة وتأففت. وطافت بنفسها غيرة الأنثى الضرة، فتجافت فى الجواب، ودمدمت بكلام لم يتبينه الرسول، وإنما لحظ شحوب عائشة وغيرتها فراح مبتئساً محزوناً. فقد أظهرته عائشة الغالية على لهفتها إلى النسل، وأحس شوقها المتحرق إلى الأمومة، فترفق بها، وضاعف لها السلوى والمواساة، وشق عليه أن تقول له يوماً:

كل صواحبى لهن كنى. غيرى، يارسول الله!

فلم ينكر الرسول من أمرها شيئاً، وإنما عز عليه أن تسرف عائشة على نفسها، فلا تروض هذه النفس على الاحتمال والإذعان لقضاء الله، فأخذها بالموادعة والحنان، وجبر تلك النفس الكسيرة فقال لها:

- ياعائشة أنت أم المؤمنين!

فسرت عائشة، وحمدت لنبيها هذا النداء، وتلقته بالرضى والحنين، وعزتها كنيتها الكبرى عن كل كنية كانت تشتهيها وترتجيها، فاستطاع محمد بما أوتى من حكمة ولباقة أن يرد عائشة إلى الحلم والهدوء والرضى بما قسم الله.

وينفذ حنان الرسول إلى قلب عائشة فيملؤه براً وإيثاراً. ويشرح الله صدرها للعلم والإيمان. فتعكف على رواية الحديث وتحيط بالفرائض وتقف على أنساب العرب، وقد تعاهدت ببرها الأرقاء، فأعتقت عشراً من الجوارى تحليلا ليمين كانت حلفتها، وخرجت عن بعض إمائها ومواليها الذين كانوا لها عند أبيها، تحريراً لرقابهن وزلفى إلى الله.

كان المال يأتى عائشة من أرض مغروسة وهبها لها الصديق فلا تمس يدها هذا المال: زهداً وكرما، وإنما تأمر بإنفاقه فى سبيل الله، وإنها لتتصدق بالألوف ولاتأنف من ترقيع ثوبها أسوة بالرسول، وتأكل مايحضرها من الطعام دون تذمر ولاشبع كما كان يفعل زوجها.

وقد بعث إلى عائشة ابن أختها أسماء بمال فى غرارتين يبلغ مائة ألف، فدعت بطبق وهى يومئذ صائمة، وجعلت توزعه فى الأقربين والمساكين فلما أمست نادت جاريتها أم ذرة:

- هاتى فطرى يا أم ذرة!

فأجابتها: أما استطعت يا أم المؤمنين فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه؟

- لا تعنفينى... لو كنت أذكرتنى لفعلت.

وكـان الرسـول إذ يخـصف نعله ويرقع درعـه ويحلب شـاتـه، تنظف هى ثوبها، وتقعد لمهنتها فى بيتها، ويسابق الرسول إلى معونتها، فيبقى قائما بمساعدتها حتى يخرج إلى الصلاة.

كذلك استراحت نفس عائشة من أعباء الدنيا وزينتها، على أخذها بها فى مستهل صباها، فانطبعت بطوابع الرسول واقتدت بسيرته وسنته، ورضيت بأن ترقى فى ذكائها وعلمها إلى القمة التى تبحبح فيها أبو هريرة وعروة وعبدالله بن عمر وابن الزبير.

على أن هذه الحياة الزوجية التى لم تتجاوز العشر سنين بين محمد وعائشة كانت حافلة بالحنان والإيمان ممتلئة بالحوادث الجسام، فأشبهت سماء صافية، ولكن هذه السماء مرت بها سحابة صيف، مالبثت أن انقشعت، فإن عائشة على تأدبها بأدب أبيها ونبيها لم تملك نفسها فى بعض النزوات، فقد ندت من غيرتها الجامحة وتنافس ضراتها فى حب الرسول هفوات تخللت حياتها الزوجية فعكرت صفاءها، ولكن حلم الرسول وسماحة خلقه بددا سحابة الصيف، فعادت مجلوة صافية.

ولعل أشد الهفوات أثراً فى حياة عائشة وضراتها ذلك التنازع العنيف بينهن تغايراً وتنافساً فى الحظوة عند الرسول، ثم تظاهرهن مؤتمرات بالرسول وإلحافهن فى توسيع الإنفاق عليهن كيداً ومكراً، فهجرهن شهراً، وخيرهن بين التسريح لأهليهن أو الإمساك عليهن إن آثرن الله ورسوله والدار الآخرة، فيكن الأسوة الحسنى للمؤمنات فى قناعتهن وصبرهن على متاعب الحياة، وذلك إيثاراً لنصيب السائل والمحروم، واجتناباً لفتنة البذخ والترف فى المعيشة، فغضب أبو بكر لتحيز عائشة إلى ضراتها ومسايرتهن فى الكيد للرسول، وقام إليها. يجئأ عنقها ويعنفها، ولما تعاقبت أيام العقاب، كانت عائشة أول من تلقى الرسول بعد تسعة وعشرين يوماً لم تر فيها وجهه الكريم، فأقبلت عليه مشوقه متوددة، وقبلت يده دامعة العينين، مسرورة بعودته وعفوه.

ياحسرة على عائشة! كيف كان حال ضراتها يوم شاع حديث الإفك؟ أكن بها شامتات أم بتن من أجلها مشفقات مترفقات؟

وهل حديث الإفك إلا فرية الأفاكين الذين فى قلوبهم مرض، فقد سولت لهم أنفسهم أن ينالوا ببهتانهم من زوجة الرسول وأم المؤمنين؟

وقديماً كان المفترون والخبثاء يحوكون الدسائس للأبرياء وينضحون بما فى أخلاقهم للإيقاع بمن يكرهون ويعادون، فلا بدع أن اتهموا عائشة بعفافها وشرفها، فمن قبلها اتهموا يوسف واتهموا مريم...

وكان الرسول بشراً لا يعلم الغيب ولا يستشف السرائر، فقدحت عنده التهمة يلغو فيها الذين مردوا على النفاق وامتلأت صدورهم حقداً وكيداً.

وشاع حديث الإفك فى كل بيت بالمدينة، والناس منذ كانوا يكلفون بأخبار السوء والمنكر وتداول الفتن والدسيسة، وكان زعيم المرجفين عبدالله بن أبىّ هو الذى تولى كبر هذا الإثم، فأخذ يهمس فى كل مسمع، ويردده فى كل ندوة، واتخذ هو وصحبه من شيعته المنافقين من حديث الإفك مطعنا للرسول فى زوجته ووصمة تلصق بأبى بكر وبنته أم المؤمنين.

ولولا غفلة من عائشة جرت عليها الملامة، وكدرت صفاء النبى أياماً، لما قيض لقالة السوء أن يأفكوا فى أراجيفهم، ويخبطوا بدسهم كيداً لمحمد، ولكن عائشة فى زهوة العمر والمجد ولاتجارب لها وقد فاتها أن زوجها الرسول محفوف بالحساد والأعداء، بل لم تحسب حساباً لما جرى بين عبدالله بن أبىّ بن سلول وصحابة الرسول، من مشاحنة وخصومة قبل الغفلة التى بدرت منها وجرى بها القضاء.

كانت هذه الغفلة من عائشة فى عودتها مع النبى والمؤمنين من غزوة بنى المصطلق، وقد بات الركب قطعاً من الليل فى طريقه إلى المدينة. فخرجت عائشة

من خيمة النبى لبعض شأنها، وفى أثناء غيبتها سرى المرتحلون على عجل، وجر أحدهم البعير الذى يحمل هودج عائشة متهيباً من مناداتها قبل الرحيل، وكانوا يحسبون أنها فى هودجها لخفتها ونحافتها والنبى مستغرق فى همومه مشغول عنها.

وتخلف عن الركب صفوان بن المعطل ليلملم بقايا الجيش بعد قيامه ليلا، فلما تأهب للحاق بمن سبقوه، رأى على البعد شبحاً خافقاً ما لبث أن تبينه، فإذا هو عائشة، وكان يراها صفوان قبل أن ترخى حجابها وتدنى من جلبابها، فجعل يسترجع ويردد: إنا لله وإنا إليه راجعون..

وقرب إليها بعيره، وهو يعجب لتخلفها عن الركب، ودعاها للركوب فركبت وهى تلعن الشيطان الذى أنساها نفسها حيث ذهبت لبعض شأنها وهناك فلت عقدها من جيدها، فتلهت فى البحث عن حباته، ولم تكن تتوقع أن يفوتوها على غفلة منها ونسيان النبى أن يتعهد ركوبها بنفسه وإيثاره السرعة فى الرحيل خشية أن يلحق بركبه الأعداء.

ولما بلغت عائشة المدينة فى وضح النهار، رآها عدو الرسول عبدالله ابن أبىّ ومعه شرذمة من الأفاكين أخذت عيونهم تتكلم قبل أن تهم أفواههم بلوك الريبة والبهتان، لتأخر عائشة عن قبيلها.

وشاع حديث الإفك فى الأحياء، وعائشة فى فراشها مريضة وأمها عندها تكاتمها الإرجاف، فإذا دخل عليها الرسول سأل أمها بجفاء وفتور:

- وكيف تيكم؟

فكانت عائشة تعجب لصدوفه عنها وتجافيه، فتحسب أن ضرتها جويرية بنت الحارث قد صرفت محمداً عنها وشغفته حباً، فاستأذنت منه أن تمرض فى بيت أبيها، وراحت محزونة النفس كاسفة البال لجفاء زوجها ونبيها، وبقيت فى

بيت أبيها عشرين يوماً لا تدرى من حديث الإفك شيئاً، حتى عادتها امرأة من المهاجرين وحدثتها بما يخوض فيه الناس، فكاد يغمى على عائشة، وانسلت بعد قليل إلى أمها تعاتبها، فقدأدركت سر وجومها وصمتها، وما كانت تتهامس به هى وأبوها فى معزل عنها فهونت عليها أمها، وقالت لها:

- وأية حسناء كانت غالية عند زوج يحبها ولها ضرات ينفسن عليها حظوتها وبختها، سلمت من دس حاسداتها؟

ومن يدرى لعل ضرة أو ضرتين من شريكاتها ندت منهما بدافع من الكيد والحسد تهمة غاشمة، تلقاها الأفاكون والمنافقون باللغو والحفاوة فشاعت منها الأقاويل بين النساء.

وآلم الرسول هذا الدس والإرجاف. وجالت فى نفسه أمور قلما تجول فى نفوس الرجال مهما يبلغوا من الحلم والرصانة، فى مثل هذا الموقف العصيب المريب، ولاشك أن خواطره كانت مقسمة بين تسريح عائشة وتكذيب الأفاكين. وقد ضرب للرجال مثلا بتريثه وأناته وانتظار أمر الله فى أمره، ولو أنه كان متسرعاً فى ظنه، وليس من طبعه الخفة والتسرع- فقطع رأياً فى عائشة بناء على أقاويل الإفك لكان عمله قدوة لمن بعده إلى يومنا هذا، ولاستحكمت المظالم فى رقاب الناس لدى أدنى بادرة فى الظن والارتياب.

وأقبل الرسول على الشورى، دأبه فى الملمات فنهنه بعض صحبه حدة غضبه، ونفوا كل ريبة فى عائشة، وفيهم الرجال والنساء، لكن علياً، وقد كان شأنه الحرية فى الرأى فى أطوار حياته كلها، وطالما جرت عليه هذه الحرية والشجاعة قلقاً وصعاباً فإنه أشار على محمد بأن لا يعبأ بعائشة، فالنساء غيرها كثير.

وكانت هذه الكلمة من على بذرة تلك الحنظلة التى ذاقها علىّ بعد ثلاثين عاما فى وقعة الجمل.

وهالت أبا بكر هذه التهمة الباطلة التى أراد الموتورون أن يجعلوها وصمة له ومطعناً فى نبيه وزوجه فقال:

- ما أعلم أهل بيت فى العرب دخل عليهم ما دخل علىّ!

ولكن الرسول ما تبدل لصاحبه ولا تحول عن داره، فقد تسجى فى بيت الصديق ذات يوم، مستهولا تلك الفرية النكراء، فأخذه بعد قليل ما كان يأخذه عند نزول الوحى من الرعدة والرعشة حتى تصبب عرقاً، فنادى وهو يمسح العرق:

- ياعائشة، إن الله قد برأك!

وفرح الصديق بما سمع وفرحت أم رومان بهذه البشرى فهتفا بعائشة:

- قومى ياعائشة إلى الرسول..

فأبت وتمنعت، ونهض الرسول مبشراً ببراءتها، مترفقاً بها فمس ثوبها وربت على كتفها، فدفعت يده الكريمة متمردة غضبى. وأخذ أبو بكر نعله ليعلوها بها، فمنعه الرسول وهو يضحك.

ومازال بها يترضاها حتى رضيت وهدأت، فتلا عليها الآيات التى أنزلها الله تبرئة لها فزادتهم يقيناً وإيماناً.

وصفت الحياة لمحمد فى بيت عائشة، وكأن تلك العاصفة الهوجاء قد انقضت وساد بعدها الهدوء. فانصرف محمد إلى تأليف القلوب وتوحيد الكلمة ورعاية المؤمنين والمؤمنات.

ومر حين من الدهر، فإذا الرسول يدعو نساءه وصحبه لحج البيت الحرام، ومضى الركب فى العام العاشر للهجرة وهو لا يدرى أن الرسول يحج حجة الوداع، ولو كان يعلم ما كتب له فى لوح القدر، لكان له شأن أى شأن. وأقبل الرسول على مكة فتلقته العشائر والقبائل بالشوق والفداء، وقد وافته من كل

فج عميق، فخطب الحجيج وأمرهم بالتقوى والتواصى بالنساء خيراً، وكان يشعر أن المنية تدعوه إلى لقاء ربه فقال للناس:

- لا أدرى إذا كنت ألقاكم بعد عامى هذا..

وقد نزل عليه الوحى فى تلك العشية بهذه الآية الكريمة «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً» فلما أصبح تلاها على صحبه وأنبأهم بالرحيل فهالهم فراقه وضعضعهم مرضه، فلما عاد إلى المدينة كان الرسول متحاملا على نفسه متوعكا وفى الغداة مر ببيت عائشة، فألفاها تشكو صداعاً، وتقول:

- وارأساه!

فداعبها الرسول بقوله:

- بل أنا ياعائشة وارأساه!

وأعادت الشكاة من صداعها فقال لها مداعباً:

- ما ضرك ياعائشة لو مت قبلى، فقمت عليك حتى يواروك التراب؟

فغاظتها هذه الدعابة وشقت عليها وبعثت غيرتها الدفينة فقالت:

- ليكن ذلك حظ غيرى يارسول الله! والله لكأنى بك وقد رجعت بعد موتى إلى بيتى، فأعرست فيه من جديد.

فضحك الرسول وسرى عنه حتى سكن بعض ألمه، فقام مطوفاً بزوجاته، حتى إذا كان بحجرة ميمونة، عاوده الألم فدعا إليه نساءه واستأذنهن أن يمرض فى بيت عائشة، ثم خرج عاصباً رأسه معتمداً فى مشيه على عمه العباس صهر ميمونة وعلى ابن عمه على بن أبى طالب.

وطلب الرسول أن يصبوا عليه الماء إطفاء للحمى التى ألهبت حشاه، فلما خفت عنه خرج إلى الصلاة فخطب المؤمنين واستوصى بالأنصار خيراً، فقلقوا

عليه، واضطربوا، واشتدت به الحمى وعانى من لهيبها أشد الكرب حتى حز الألم فى نفس الزهراء فصاحت:

- واكرب أبتاه!

ففاضت دموع النبى وقال:

- لاكرب على أبيك بعد اليوم!

وشق النزع على الرسول فإذا هو صامت لا يتكلم، فوضعت عائشة رأسه فى حجرها، حتى قبض بين سحرها ونحرها.

ولم تملك عائشة نفسها فخرجت عن وقارها فى خطبها، وقامت متدلهة والهة، فإذا هى تلتدم وتلطم، وتنوح مع النساء، ولم تعلم بدفن الرسول حتى سمعت صوت المساحى من جوف الليل.

وقد أقامت بعده فى الحجرة المجاورة لحجرة قبره، فكانت تزوره كل يوم، وتستمد من ذكراه جلداً على احتمال الحياة، ولم يخلف لها الرسول ثروة من المال تفنى بعد حين، وإنما خلف لها وللعالم ميراثاً باقيا على الزمان ما بقيت الأرض والسماء.

ترك لهم كتاب الله وسنته هدى للناس ورحمة، وأورثهم هذا الإيمان الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور وجعل كلمة الله هى العليا.

ولبثت عائشة بعد الرسول مفزع القلوب فى الحنين إليه وكأنها بقية وجوده ومعلمة الدين بعده، على نضرة العمر فيها ورزانة العقل والتفكير، وقد أودعها النبى صحف القرآن وسنته وأحاديثه، فحفظتها وبلغتها حتى غدت مرجعا للرجال والنساء، فكان يأتيها رواة الحديث وفيه ما فيه من شرح وتشريع فتقوم بالتحليل والتفصيل على أسدٍّ رأى وأصدق رواية، ولم تكن أم المؤمنين الراوية الأولى للحديث والسنة فحسب، وإنما أحاط علمها بمشكلات التاريخ ورواية

الآداب والأنساب، ونفذت معرفتها وفطنتها إلى طب زمانها ومواقع النجوم عند العرب فألمت بها، ولما تعقدت السياسة بعد حرب الردة، كانت عائشة إلى ذلك ملاذ الشورى وصاحبة الرأى المسموع، فكان يجيئها صحابة الرسول وأولو الأمر منهم يستوضحونها ما غم عليهم من وجوه الرأى والسداد، حتى غدت مرجعاً لمن لا يركنون ليقين مما سمعوا حتى يبلغهم جوابها فتطمئن قلوبهم؛ وقد استدركت عائشة على ثقات العلماء وكبار الصحابة فهمهم لسنة أو حديث فاتهم أول الكلام عليه أو آخره، فتكشف عما التبس وغمض من الأحكام والروايات، وكان يرجع إليها أبوها الصديق وعمر بن الخطاب فيما هى أعلم به من حديث أو نسب، فوجدا عندها ما يزيدهما طمأنينة فى الحكم والرأى والاستنباط.

ومن دمشق كان يكتب إليها معاوية فى خلافته الأموية مستفهما أو مستعلماً عما استبهم على الفقهاء والرواة فى التفسير والأخبار.

شهدت عائشة بوادر الفتنة أيام عثمان، إذ تبرم الناس بولاته وعماله الذين استخلصهم وآثرهم، فاتخذوها وسيطا لدى الخليفة فى عزل الولاة وردعهم عن الترف والتبذير.

ولما حوصر عثمان خرجت عائشة لتدفع عنه فتنة المغيرين والناقمين، وكانت معها شريكاتها صفية بنت حيى فنهتها أم سلمة، ونصحتها بكتاب كريم، فأجابت أم المؤمنين بأنها ما قامت إلا لتصلح ذات البين بين فئتين متنافرتين.

واتبعها السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فلما رأت أتباع عثمان يأتمرون بأخيها محمد ليقتلوه ثار ثائرها، وآثرت هجر المدينة لكى تقيم فى مكة بجوار البيت الحرام.

وأخذت الفتنة تطغى وتحتدم، حتى قتل عثمان شهيداً، فغضبت عائشة لمصرعه، وانصرف الناس عن قاتليه كأنهم لم يفعلوا شيئا، فهبت أم المؤمنين تدعو الأبطال للثأر لدم عثمان بكل ما أوتيت من بلاغة فى الخطابة فألّبت الأحامس وألهبت حميتهم فخفوا إلى القتال تحت رايتها الخفاقة.

ولقد حملت عائشة عليا تبعة الفتنة فركبت جملها وقادت جندها إلى البصرة وكان الخصوم بالعراق.

فيامن رآها تحض الفرسان خلف الفرسان وتزجى الصفوف إثر الصفوف وهى فى هودجها الخافق بالدروع ونبال الأعداء منصبة عليه حتى قتل حولها الألوف، وقطعت أيدى الأبطال على خطام بعيرها!

ومَنْ لأعين كان ترى هذا الجمل وهو يجرجر بصوته ويرغو الزبد على شدقيه؟ فلما قطعت قوائمه وسقط على الأرض هداراً مجرجراً، تفزت عائشة من بين الرماة والكماة وهم يفدونها بأرواحهم ويودون لو يسقط الجمل، فكسروا بقايا نصالهم وأصابوا بنبالهم جسوم الأعداء.

ولم تلبث اللبؤة الثائرة، مهتاجة غاضبة إلى أن هدأت بعد الهزيمة منطوية على نفسها، فآوت إلى بيتها محزونة نادمة على دماء الأبرياء وأرواح الشهداء التى أزهقت فى وقعة الجمل، وطالما تمنت الردى قبل تلك المعركة الفاتكة.

وكانت ثورة أم المؤمنين سبباً فى نقد المؤرخين، ولوم المتهكمين حتى قال ناس فى قديم الدهر وحديثه ما لعائشة وللسياسة؟

وكان قولهم مشفوعاً بالنقمة على النساء جميعاً، وفيهم كثير عد تصدى عائشة للقتال بدعاً منها وفتنة، لأنهم أضمروا لأسباب خاصة كل عداوة للمرأة واستهانة بكل ما يصدر عنها.

على أن تاريخ العرب فى جاهليتهم وإسلامهم، قد اشتمل على مواقف المرأة فى الحرب والسياسة ونصرة الحق، كان فيها الظفر والتوفيق، ولم يكن

يكره ذلك منها أو تعاب عليه وتؤاخذ به، ولو حللنا ما أحاط بعائشة من الدس والحقد لوجدناها بريئة من كل تحيف وتعسف، فالمتقصى لما لابس تلك الحوادث الغاشمة يرى أن كتباً كانت تروح وتجئ بعضها باسم عثمان وبعضها باسم أم المؤمنين وهى منها براء، ولو أن جو السياسة كان صفواً خالصاً فقيض الظفر فيه لعائشة بحرب الجمل لكان لها شأن غير ذلك الشأن ولتبدل به كثير من معالم التاريخ الإسلامى، فإن عائشة قد برزت واختفى من حولها كثير من الدساسين غابت تبعاتهم فى التاريخ، ولولا صراحة عائشة وشجاعتها لما ناءت وحدها بتلك التبعات التى فر منها أصحابها واستسروا فى مطاوى الكتمان.

●●●

سلوا الشيخة القانتة وهى محزونة فى بيتها أو محرابها، عما خلفت وراء السبعين من عمرها! فقد عاشت بعد زوجها محمد زهاء خمسين عاماً معلمة لرواة الحديث والسنة، مفتية بما التبس على الفقهاء والعلماء، وليس هذا بمستكثر على من أحاطت علماً بأحكام الشريعة وقضائها، وحفظت حديث الرسول كما جاء فى أوانه وأسبابه حتى قال عنها الرسول: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء».

سلوا عائشة بنت الصديق عما شهدت من كبريات الخطوب والحوادث منذ كانت صغيرة لعوباً حتى فارقها الرسول وهى لا تتجاوز العشرين عاماً.

إنها لن تجيبكم، فهى صامتة إلى يوم الدين، تأخذها السكينة فى جنب الرسول، ولكن يجيبكم تاريخها الحافل مكتوباً بأقلام الثقات من الباحثين والمؤرخين بأنها كانت راوية محمد وأعلم الرواة بكل ما اتصل بكتاب الله وسيرة الرسول فكانت بحق فخر المؤمنات وأم المؤمنين.

حفصة بنت عمر

(الخطابية)

«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان،
ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة»
من حديث النبى ﷺ فى خطبته حفصة

أحب محمد أن يزداد أنصاره عدداً وإيماناً به وبرسالته لتعلو كلمة الله ويسود الحق والسلام، فقرب إليه ذوى القربى وتزوج عائشة بنت صاحبه أبى بكر الصديق ليشد عضده بأبيها ويستعين به على الأعداء والمناوئين.

وكان عمر بن الخطاب الذى أسلم بعد عتو عن أمر الله وثورة على أخته فاطمة وزوجها سعيد لأنهما آمنا بمحمد واستجابا لدعوته حتى كانا سبباً فى إسلامه وإذعانه للحق- كان سنداً قوياً للرسالة ودفع ما ائتمر بها الخصوم والطواغيت، فاعتز محمد بعمر، وما أوتى من نخوة وبطولة فى فترة بدأت فيها الهجرة والانطلاق بعد حصار واستخفاء.

وطابت نفس محمد بهذا التأييد الجديد من عمر، فركن لإيمانه ورأيه وهو يجهر بتعاليمه ويشاوره فى أمره كما يشاور أبا بكر؛ ولكى يزداد طمأنينة وارتباطاً بهذا النصر الكبير لم يستطع أن يكتم فى نفسه رغبته فى أن يكون صهراً له كما كان لأبى بكر، فلما جاء عمر ذات يوم متبرماً بما كان من تجافى صاحبيه أبى بكر وعثمان إذ عرض عليهما واحداً بعد الآخر أن يتزوج ابنته حفصة فلقى منهما الإعراض والسكوت.

وحفصة الصبية الذكية التى فقدت زوجها وهى فى الثامنة عشرة فى وقعة بدر محزونة لا تكفكف دمعها، فإن زوجها الصحابى الفدائى خنيس بن حذافة السهمى كان فى عداد المهاجرين إلى الحبشة كصاحبه السكران زوج سودة وقد ناضل فى «بدر» حتى أعياه النضال فقضى نحبه بعد عشرة زوجية لم تطل شهورها، وكانت حفصة سعيدة بزواجها فتركها خنيس لحزنها العميق ولم يجد عمر خروجاً لابنته حفصة من هذا الحزن الذى ملأ بيته كآبة إلا بتزويجها صديقاً يعرف قدرها ويجبر خاطرها.

فلما أبدى لأبى بكر هذه الرغبة التزم الصمت والابتسام فراح إلى عثمان وكان محزوناً لوفاة زوجته رقية بنت محمد عارضا عليه الزواج من بنته حفصة فأجابه بتبرم:

- لا رغبة عندى فى الزواج...

كان محمد وهو يستمع لكلام عمر يشعر بأن الرابطة التى يريد أن يوثقها من جديد أوشك أن يمسكها بيده فقال لعمر:

- يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان الذى آلمك جوابه من هى خير من حفصة...

فتبسم عمر راضيا باشًا وقد أدرك ما يريد محمد وعاد من فوره إلى بيته يحمل إلى حفصة هذه البشرى.

ولما علم أبو بكر بما دار بين الرسول وصاحبه عمر عاودته الذكرى فأحب أن يمسح ما علق بنفس عمر من جراء صمته يوم عرض عليه الزواج من بنته فقال له:

أرجو أن يكون قد زال ما بنفسك نحوى.. فإنك وجدت على من أجل بنتك، ولو لا أن رسول الله قد ذكرها فكتمت سره لما لقيت منى السكوت..

ولو علمت بأن عثمان ما يزال محزوناً على وفاة زوجته رقية بنت محمد لايطمع فى غير شقيقتها أم كلثوم لما سألته زواجاً من حفصة.

ودخلت حفصة بيت الرسول زوجة ثالثة وما كان فى هذا التعدد من ضير وعيب فى ذلك الحين عند العرب، وكان عند محمد وسيلة لتوثيق الصحبة والقربى وشد العضد والأزر فيما كان بسبيله، وقد دانى الرسول بين الزوجات عادلا فى المعاملة والعشرة قدر ما استطاع قلبه وعقله، لكن عائشة التى تقبلت سودة بالطمأنينة دون غيرة منها لم تستطع أن تكتم غيرتها من حفصة وهى مثلها شباباً ونسباً وفضلا.

أما حفصة فقد سبق لأبيها عمر أن وصاها بأن لا تزاحم عائشة على قلب محمد، ومحمد يرضيه ما يرضيها، فلتعمل على اكتساب رضا نظيرتها التى

تناصيها نسباً وأدباً لتكون معها لا عليها، وحسبها أن صارت في عصمة الرسول ورعايته يتعهدها بعطفه ومودته. على ألا تتقدم من سبقتها إلى قلب محمد وتفوقت على الحداثة بعلمها وفطنتها.

وبذلت حفصة من الرصانة والتقوى ما أحلها محلا كريماً لدى محمد، وكان أبوها يتفقدها ويرتقب سلوكها في بيت زوجها مع ضرتها إن صح أن تكون لها ضرة بالمعنى الحديث، وما كان لحفصة أن تضار في قرب عائشة وصحبتها وإن كان يعتريها في سرها ما يعتري أمثالها من الغيرة المكظومة، فقد وطدت نفسها على معاناة ما يعنيها بصمت ورزانة، وكانت تشهد تفتح عائشة في وعي الحياة وإدراك ما يغيب عنها أحياناً فتقر لها بينها وبين نفسها بحقها فيما سبقت إليه.

وبقيت حفصة حفيظة على توصية أبيها في استرضاء عائشة واكتساب ثقتها بالإيثار والتكرم، ولو جارت على نفسها بما يشبه الغضاضة تخوفاً على الرسول نحوها وحسباناً لما قد تلقاه من أبيها، حتى رأت بعينيها وجوه زوجات طارئات، دخلن بيت الرسول واحدة بعد أخرى فيهن الصبية الغريبة والكهلة العوان والأرملة الجميلة، وكانت أم سلمة أولى الوافدات الجديدات، ضاقت بها عائشة وهي تراها في عمر أمها وفي بقايا ملاحة وفتون هيجت غيرتها فراحت إلى حفصة تشكو ما أصابها وتستعين بها عليها خوفاً من أن تكون لها حظوة لدى الرسول.

وربما سولت لها نفسها الكيد لمن دمرت عليها بملامح وسامة لم تمحها السنون أو بأصالة متينة الوثاق والأعراق.

وارتدت حفصة إلى طبيعة الأنثى في غيرتها، فتحيزت إلى عائشة تسري عن نفسها المكبوتة، وتسايرها فيما ترى نحو هؤلاء اللواتي اقتحمن منزل الرسول زوجات أليفات حيناً متنافرات أحياناً، وتبلغ بحفصة الصراحة أن تراجع

محمداً فى بعض الأمور فلا يؤذيها فى غيظها، حتى يصل النبأ إلى بيت عمر، فتخرج فيه زوجته على ما تعودت من التأدب والموادعة كلما رأته فى حدة طبعه أو عنفوان غضبه فيسألها:

- ما الذى غيّرك حتى تطولت علىّ لا تأبهين لمرضاتى؟

فلم تستطع أن تخفى ما ترامى إليها من أخبار بنته فى بيت محمد قائلة له:

- عجباً لك يابن الخطاب، ما تريد أن أحاور أو أراجع، وإن ابنتك ما تتحرج من مراجعة الرسول حتى يخرج من عندها واجماً يكظم غضبه ولا يخفى...

فاهتاج عمر وهو يعنف زوجته، ويمضى بعنفه إلى بنته حفصة، فتعجب لقدومه غضبان وتخشى أن تبدأه بالسؤال فيقول لها:

- هل كان حقاً ما سمعت بأنك تراجعين الرسول حتى يغضب؟

فأجابت حفصة: والله إنا لنراجعه ولا ننكر...

فقال لها: أى بنية، لا يغررك ما تجدين من عائشة. فهى أقرب للرسول منك فلا تطاولى، ولولا أنى عززت عليه لكان نصيبك التسريح...

وأخذ عمر يتساءل عن أم سلمة وهى فى رصانة ليست ببنته، فحاورها وعاتبها لسكوتها عما يقع فى منزل الرسول، لكنها لم تطاوعه فيما أراد وردته عن تقحيم نفسه فيما لا يرضيه وإن كان يعنيه، فإن الرسول أولى بتأديب من لا ترتدع ولا تراعى أمرها، لكن هؤلاء الزوجات صبايا وكهلات، وقد أعزهن الله بأن كن أمهات المؤمنين لم يستطعن أن يتجردن من غيره الأنثى إذا مست بما يضيمها وهاجتها مساءة من جنسها، وكانت حفصة وعائشة تتداولان الدسيسة ولا تكف إحداهما عن لمز التى يختصها الرسول بنظرة خاصة أو زورة طارئة،

حتى أنذر حفصة بتسريحها لولا أنه يعلم بأنها صوامة قوامة. وكانت امرأة صالحة وقد خافت حفصة من أبيها الذى توعدها من قبل بأن لا يكلمها إذا تناست ما وصاها به.

وشاع بعد حين أن نساء النبى يأتمرن به مضايقة وتجافياً، والتماساً لنفقة تعذر عليه تدبيرها، حتى أنه لم يخرج ذات يوم من بيته للصلاة بالناس فتساءلوا عن السبب وكان أسبقهم إلى بيت محمد أبو بكر ثم عمر، دخلا ليتفقدا الرسول فوجداه على غير عادته، ولم يكن مريضاً ولا مشغولا، وإنما رأياه كالحارد المعتزل، وزوجاته واجمات متحيرات فإنهن ألححن فى التماس النفقة والرسول لا يدخر عنهن شيئاً، فهدد أبو بكر بنته عائشة بالتزام الخير والصبر وأن لا تسأل الرسول ما ليس عنده.

وتوعد عمر بنته حفصة فأمسك برأسها وعنقها، وكأنه يهم بضربها ويخشى أن تكون هى سبباً فى غضب الرسول، وأبى الرسول إلا أن يعامل زوجاته بالحزم وأن يهجرهن حتى يعدن إلى التوبة والصواب، وإلا كان جزاؤهن التسريح والطلاق.

واعتزل الرسول هؤلاء المؤتمرات به الناقمات الغيورات، لا يكلمهن ولا يدنو منهن، فشاع بين الناس نبأ هذه العزلة الطويلة، وأنها قد تكون عقوبة وقصاصاً. أو تكون طلاقا فكانوا فى همٍّ مقيم لتأبِّى النبى على نسائه وإشفاقهم من سوء المصير، ولم يستطع عمر بن الخطاب صبراً على هذا الأمر فمضى بشجاعته ونخوته إلى حيث اعتزل الرسول زوجاته، مستأذنا ملحا فى زيارته. فلما أذن له بالدخول رأى النبى مستلقيا على حصير متكئا على وسادة حشوها من ليف، وسبق التحية دمع من الرجل المهيب الوقور فنهض الرسول وقال لعمر:

- ما يبكيك يا عمر؟

فأجابه بحسرة: لا يشق عليك أمر زوجاتك، فإذا كنت تريد تسريحهن فإن الله معك ونحن معك..

فقال الرسول: لم أطلقهن، وإنما هجرتهن شهراً.

فاطمأن عمر وحنا على الرسول يتحدث إليه بما خفف من أسفه، ثم مضى إلى المسجد ينقل البشرى إلى الناس فهللوا وكبروا وهتفوا بالطمأنينة والغبطة.

وعادت إلى نساء النبى نفوسهن الموزعة، وكادت تذهب حسرات وجاءهن الزوج الكريم بتخيير ما يعجبهن، فإذا كن يردن الحياة الدنيا وزينتها فلهن التسريح، وإن أردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منهن أجرا عظيما.

وبكت نساء النبى ندامة وتوبة، وعدن إليه راضيات تقيات، ساعيات إلى مودته ورضاه، ولعل التقارب الذى كان بين عائشة وحفصة مرده إلى أن كلا منهما كانت بنتا لمقرب من صحابة الرسول تروى أحاديثه وتحفظها وتعلم أسبابها وما لابسها ورافقها، وكانت حفصة برصانتها وتقواها مرجعاً لكثير من الصحابة فى الحديث وسور القرآن، وقد لازمها أخوها عبدالله فتلقى عنها ما تلقت فى بيت الرسول الذى كرمها، لانصرافها إلى العناية بتعاليمه مشاركة عائشة فيما روت وتأدبت ولم تجد غضاضة بعد ندامتها فى أن تلقى زوجة لنبيها جديدة وافدة هى زينب بنت خزيمة أرملة الشهيد عبدالله بن جحش أحد الفدائيين فى «أحد»، وابن عمة الرسول.

تزوجها محمد كدأبه كلما عطف على بائسة هدتها المصيبة والعزلة وربطتها بالرسول وشائج القربى أو الصحبة، لكن زينب الخزيمية العامرية ماتت بعد زواجها بثمانية أشهر مشاركة لزوجات النبى باللقب الذى ألقاه عليهن هذا الزواج الرحيم وهو أم المؤمنين.

ولم تنعم زينب بهذا اللقب فحسب، وإنما كان لها لقب آخر هو أم المساكين فقد أجمعت الروايات على أنها عرفت بالحنان والحدب على هؤلاء المضعوفين المتعففين والمعوزين المحرومين فسميت أمهم ورضيت من دنياها بأن تكون من أزواج النبى وممن شملهن بعطفه وشرفه.

أما حفصة فقد عاشت بعدها وبعد الرسول مرعية الجانب، مرضية المكانة، تتبع تدوين السور والآيات وتنسيقها بعد جمعها من أفواه الحفظة الثقات ومن الصحف والرقاع التى جمعت فيها، وكان أبوها عمر يلح فى جمعه خوف ضياعه، ولما عمل أبو بكر فى خلافته الراشدة على حفظ القرآن مكتوباً عنده تخير حفصة من بين نساء محمد، ليكون عندها، فحفظته فى صدرها وفكرها وأودعته أمانتها حتى كان عهد عثمان بن عفان، فإنه أخذ منها صحف القرآن ورقاعه وأمر بنقلها فى عدة مصاحف على أن يرد الأصل إليها ويحرق ماعداه، ثم أمر بإرسال النسخ إلى الأمصار والقبائل ليعولوا عليها وحدها.

ومن الجدير بالذكر أن حفصة الخطابية تعلمت الكتابة قبل زواجها بمحمد على يد معلمة من رهط أبيها تسمى الشفاء العدوية، ولما تزوجت حفصة شجعها الرسول على إتقان القراءة والكتابة فكانت له تلميذة ثانية بعد عائشة، وقد روت هذا الخبر مصادر المؤرخين ومنها فتوح البلدان للبلاذرى.

ولما احتدمت الفتنة من جراء الفجيعة بمقتل عثمان أرادت عائشة أن تمضى إلى البصرة للتحريض على المطالبة بدم الخليفة الشهيد، وشاءت حفصة أن تصاحبها وتؤيدها لولا أخوها عبدالله الذى زجر أخته وصدها عن مشاركة عائشة فى الحض على الثأر والانتقام.

وبقيت حفصة على ولائها لأخيها وإيثاره بعنايتها ووصت له بكل ما ورثت من أبيها، وعمرت إلى الستين، وكانت وفاتها بالمدينة فصلي عليها واليها مروان بن الحكم من قبل معاوية، وقد نظم اسمها فى عقد الخالدين والخالدات.

أم سلمة

(هند المخزومية)

«رضيت بك يا أم سلمة، وسأتعاهد أولادك فأرعاهم بمحبتى وعونى، أما غيرتك فيذهبها الله»

معنى ما قاله النبى ﷺ لأم سلمة فى خطبتها

كأن القوم تنادوا بلهفة وحنين، فقد أقبل بعضهم على بعض مشفقين مشوقين، في عشية من عشايا الحجاز، لافحة برياح كأنها بقايا اللهيب من ذلك النهار.

وما ألقى الليل على مكة ظلامه وهدوءه، حتى سرى هؤلاء الكرام إلى دار الندوة، يجررون العباءات وراءهم، ويخفقون تحتها بالأردان المعطرات، إنهم ليمرون بمنعرجات خلف البيوت وكأنهم أشباح خافقة فى العتمات.

أخذ هؤلاء المتنادون مجالسهم، حيث ينبغى لهم أن يتدبروا الرأى ويتبادلوا الحديث عن هذا الرسول الذى تصدى لأمر تغلى فيه مكة وتفور، فأسر الكلام فى الندىّ بعض، وجهر به بعض، وكان بين المشفقين على محمد وصحبه نفر من المؤمنين، تذاكروا هجرة الحبشة وما احتمل أهلوها من قلق البال وعنت الاغتراب، فذكروا أبا سلمة عبدالله بن عبدالأسد المخزومى الصحابى، وكيف نأى عن الحمى، ومعه زوجته التقية هند بنت أبى أمية، إذ كانا من السابقين الأولين إلى الهجرة الثانية، وكاثروا بهذه الزوجة المؤمنة الرضية التى بذت النساء فى ذلك المنتأى، فاحتملت السفر عبر البحار وهى حامل، وتجشمت حرات هاتيك الديار على ما منحها الله من عذوبة الطبع وخفة اللحم وروعة الجمال، ولعلهم قالوا فيما تطارحوا بشأنها : امرأة بألف من النسوة، قد أعدتها الأقدار ليوم عصيب، فما مثلها فى العشيرة أم رؤوم، ولا نديدة لها فى جنسها حكمة وعزماً، وطوفت أحاديث القوم بخواطر النسوة اللاتى كن ينفسن على هند أم سلمة وسامتها ونجابتها، وإيثارها زوجها ابن عبدالأسد بطاعتها ومودتها، فما عرفنه يوماً جار عليها ولا أدركن يوماً تجنت فيه أو نشزت، وأنصف القوم فوصفوها بمزاياها وذكروا أباها زاد الركب، أبا أمية المخزومى الذى كان يطعم الركب إذا سار فيهم. فلا يحمل أحد منهم قليلا أو كثيراً، وأما أمها فعاتكة الكنانية من منبت أصيل وبيت كريم.

ولا يكاد ينفض السامرون فى قطع من الليل حتى يأووا إلى بيوتهم. وقد يعودون لأحاديثهم فى لياليهم القابلة، فلما كانت هجرة الرسول إلى المدينة شاع خبر هذه الهجرة وخاض فيها الناس مدهوشين، إذ تسامعوا أن محمداً وصاحبه قد انطلقا تحت الظلام فى الليلة البارحة وهم يعلمون أن يثرب وما جاورها لا يبلغه الراحل بمسيرة يوم، فلابد أن يبيتا بمفزع فى بعض الشعاب، فكانوا يدعون الله أن يسلم محمداً وصاحبه من الأذى ويحميهما من كيد الأعداء.

ويلحق بمحمد أبو سلمة مهاجراً إلى المدينة وتبقى أم سلمة واجمة حيرى، فقد صدها قومها عن الهجرة، وانتزعوا منها ولدها سلمة لكى يحولوا دون بغيتها، فكانوا يتخاطفونه بينهم ليزيدوا فى غيظها حتى خلعوا يده، فكانت تخرج إليهم والهة مدلهة، ويضحكون منها كيداً ومكراً، ولما اشتد خطبها رق لها شافع من قومها حدب عليها وشفع فيها حتى ردوا لها وليدها سلمة، فكأن روحها ارتدت إليها.

وتتبع الليالى السود بعضها بعضاً، فتضيق أم سلمة بحياتها فى مكة بين قوم ساموها العذاب وساقوها المنكر، ويهيج حنينها إلى الهجرة لحاقاً بالرسول وزوجها، وترتقب سانحة للسفر حتى إذا اغتنمتها، رحلت جملها وشدت عليه مزاد الماء، فكانت البيداء تطوى عنها ويدنو بعيدها، إلى أن بلغت دار الأنصار، فتلقاها أبو سلمة كأنها برد على كبده، وعلم بمقدمها الرسول فأكرمها.

وإن أيام الهجرة لشاقة مريرة، لولا كرم الأوس وحمية الخزرج، فقد هدهدوا آلام المهاجرين ومسحوا دموعهم بالبر والمواساة، فنصروهم وآزروهم، وأم سلمة وزوجها إلفان فى دارهما النازحة كما كانا فى مكة بين أولادهما، ولم يزل ذلك شأنهما حتى طوى الموت أبا سلمة بعد ثلاث سنوات من هجرة الرسول إلى المدينة، وقد وصاها قبل موته أن تبتغى الزوج الصالح بعده فحزنت عليه وفزعت إلى الله تدعو أن يؤاجرها فى مصيبتها.

ومازالت وصية أبى سلمة ملء سمعها وقلبها ، وقد شاعت هذه الوصاة فى قومها فتساءلوا:

- من ذا يكون الرجل الصالح؟

وما ابتغت هند شيئاً بعد أبى سلمة، فعكفت على بيتها، واستغرقت فى سكب حنانها على بنات يتامى وولد نجيب، كان قرة عين لها وموضع أمل لها ولأخواته الثلاث.

وأكملت أم سلمة عدتها ، وكأن قوماً كانوا يعدون أيامها لعل أحدهم يكون المحظوظ بالزوج الصالح.

وخطر لأبى بكر أن يبنى بأم سلمة، ولكنها أحسنت رده، وبادر عمر بعده فأبت خطبته وامتنعت عليه، ثم جاءها الرسول وقد ألقت على وجهها خمارها ، فلما خطبها اعتذرت بأن السن أفلتت منها ، وأنها أم بنات وعنيفة الغيرة، فقال لها الرسول:

- رضيت بك يا أم سلمة، وسأتعاهد أولادك فأرعاهم بمحبتى وعونى، وأما غيرتك فيذهبها الله..

وكان محمد بعد ذلك الحوار هو الزوج الصالح لأم سلمة، فعاشرته عشرة الزوجة الأمينة الودود ، وكانت له مبعث الأنس والطمأنينة والعزاء فى الغزوات والملمات، فقد رافقته فى بعض مغازيه وسددت له الرأى والمعونة وواسته فى كل خطب، فلما خرج بصحبة المهاجرين والأنصار يريد البيت الحرام زائراً ومعتمراً، تصدت له قريش لتصده عن دخول مكة دون رضاها ، فتحالف وصحبه وشددوا المواثيق لزيارة البيت العتيق، ولو على رءوس الرماح، فخرجت إليهم قريش مستكشفة مستطلعة، فلما أحست بأسهم توسلت إلى الرسول بأن يعودوا إلى المدينة خشية أن تسفك الدماء فى الأرض المقدسة، على أن يؤجلوا هذه الزيارة

إلى العام التالى، فيفسحوا لهم طريق الحج فرضى الرسول بذلك حقناً للدماء، وحفاظاً على البيت الحرام، وقد طلب إلى أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا أضاحيهم تحللا من الإحرام، فشق على المسلمين أن يردوا عن اعتمارهم بعد أن تعاقدوا على الموت فى سبيل الله، وأبوا أن يذعنوا لكلام الرسول، فدخل على زوجته أم سلمة محزوناً مغيظاً، وشكا إليها غدر أصحابه وعنادهم، فهونت عليه الأمر والتمست له مخرجاً من هذا المأزق بأن يلقاهم صامتاً حالقاً، وأن ينحر هادئاً كأن لم ينكر من تحرجهم وتمردهم شيئاً، ولم يكد يفعل ما أشارت به أم سلمة حتى ثاب المؤمنون إلى رشدهم فارتد إليهم هدوؤهم واستجابوا له صامتين، فلم يبق مسلم إلا نحر مكانه وحلق اقتداء بالرسول.

ودارت الأيام ففتح النبى مكة، وأتم الله نعمته على المسلمين فأكمل دينهم وأثابهم فتحاً قريباً ونصراً عزيزاً، ولما مات الرسول عن أم سلمة بكته طويلا وعاشت على ذكراه، وكانت مثل خديجة فى نصر الله وتأييد رسوله، حكيمة رشيدة ذات رأى وحلم وأناة، ولم تكن مثل عائشة فى حماستها وغيرتها، ولئن اعترفت بهذه الغيرة للرسول وحذرته منها حين طلبها للزواج، فما عاين محمد من غيرتها مثل ما عاين من عائشة، ولم تفارق أم سلمة حكمتها وأصالة رأيها فى زحام الوقيعة واشتداد الخطوب، فقد راعها أن عائشة تستنفر أحامس المؤمنين لقتال على بن أبى طالب ثأراً للخليفة الشهيد عثمان بن عفان، فكتبت إليها لوامة معنفة فأجابتها عائشة بأنها تصلح بين فئتين متشاجرتين «وتمضى إلى ما لا غنى عن الازدياد منه، وإن قعدت فعن غير حرج».

فلم تنفع لومة أم سلمة وإن توقعت ما جرى به القضاء فى وقعة الجمل فغشيتها الأحزان على أرواح تعجلت الفناء استجابة لرأى أم المؤمنين عائشة، التى شجاها ما شجا أم سلمة من قتال أطلع الفتن أزاهير حقد وكيد، وأبقى الأضغان والتحيز يتوارثهما جيل من جيل وتؤلف بموضوع الفتن أشتات الكتب منافحة أو مهادنة، وكأن الأمر موكول إليها بالتأييد أو التفنيد.

وامتد العمر بأم سلمة فعمرت، لكنها ما أهترت على كبرتها ولا أفندت، ولا ندبها العقل عن رزانتها، وليت شعرى هل اشتعل رأسها شيباً من تزاحم السنين أو من هول ما شهدت من خطوب المسلمين فى حروب الشام والعراق، وفيما انكشف عنه خلاف الخلفاء والولاة تعالياً وطمعاً؟.

وكما شهدت أم سلمة مصارع نفر كثير، عرفت فيهم الشهامة والمروءة، فإنها انطوت على نفسها فى أمر طائفة عرفت فيهم العنجهية والخيلاء ممن غرتهم الحياة الدنيا فهان عليهم هدر الدماء.

وانتهت حياتها فى عهد يزيد بن معاوية الذى لم يتورع عن الفتك بأحباب الرسول وآل بيته فأطبقت عينيها وهما تشهدان ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

زينب بنت جحش

(الأسدية)

«ستلحق بى أطولكن يداً»

من حديث النبى ﷺ يذكر كرم زينب بنت جحش

ما كاد زيد بن حارثة يدخل بيته ذات مساء، حتى تلقته زوجته زينب الأسدية بوجه عابس وأنف شامخ، فتكلف زيد الابتسام وأخذ يتودد إليها ما استطاع، فصدته عنها بعنف وصلف، وأبت أن تصغى لكلامه، فعجب لأمر هذه القرشية التى استضعفته وتنكرت له زعماً منها بأن زيداً دونها نسباً ومقاماً.

كان زيد قبل أن يقفل تحت العشية إلى بيته عند نبيه وأبيه بالتبنى محمد بن عبدالله يستمع لحديثه، ويلقى صحابته بالمؤانسة والبشاشة، فلما دخل داره تجهمت له زينب كعادتها، فحاسنها ولاينها، وسعى بين يديها بجسم صاغر مخذول، ونفس مكفوفة أبية، مكبوتة الحرية؛ لأنها احتملت الخزى والهوان ورضيت بمصيرها فى سبيل هذا الرجل الذى ملأ مكة فضله، وسارت رسالته فى أحياء العرب تشرع للمؤمنين شرعة الحق والإخاء والعدل.

وتقدم زيد فى خدمة زينب، فما رقت له ولا لان كلامها، فجاهد نفسه وعالجها بالمصابرة، محتملا صلف زينب طاعة للرسول الذى أشهد الناس أنه اتخذ زيداً ولداً يرثه ويورثه، فكان زيد يرى لمحمد يداً عليه، وقد طوقت عنقه بشرف النبوة والأبوة، وبالزوجة الحسناء التى آثرها له زوجة لحكمة أرادها، فصبر على نشوزها وتجافيها، وأخفى بين حناياه لوعة ما يلقى من إعراضها، ولكم قضى زيد شطراً من الليل مثل ليلته هذه يذكر دمع أبيه وهو يفارقه مفضلا أن يبقى مع هذا الرجل الذى رأى منه شيئاً،. ثم يتمنى أن يطلع عليه صباح يكون أحسن من مسائه، فإذا انجاب ليله وأسفر صبحه بدت له زينب تحت شروق الشمس، متوعكة المزاج كالحة الطلعة من عبوس مازال يبدو جميلا فى امتعاضه وانقباضه، لأن الوجه الذى يحتويه قد منحه الله فتوناً وسكب عليه السحر الحلال فغلب جماله على كآبته.

وإن زيداً ليتلطف فى مصافاتها، ولا يكف عن مؤانستها، فيهمُّ ذات مساء بنقل ما سمع فى مجلس الرسول فتتوسم سواده وتنبو بنظرها عن أنفه الأفطس فتقول له:

- دعني من لغوك وأرحني من وجهك، فإني ضيقة بحياتي. والله ما انبسطت لك نفسي منذ أكرهت على الزواج منك.

فلم يثر زيد في وجهها، وإنما تماسك لزهوها وعتوها، فأقام بين يديها يصطنع الحلم والوقار، فرفعت إليه زينب وجهاً ينضح بغيظها، وقالت:

- أهلي في القمة من قومي، فإن أمي أميمة بنت عبدالمطلب وخالي حمزة أسد الله، ومحمد بن خالي عبد الله، وإنه لظالمي فقد زوجني بك كرهاً وأنت مولاه، ففوّت على الفتيان الطوال من قريش وهاشم.

وكان زيد بن حارثة قد سرت في طباعه سجايا محمد من طول مرافقته له وقيامه بخدمته، فكظم غيظه وأمسك عليه الحلم صبره، وانفتحت شفتاه عن كلمات رقيقة مشفقة، تبعث الحنان في أقسى القلوب، فقال:

- كفي يازينب، هوني عليك وخففي حدتك.. فما أنا مولى رقيق لمحمد ابن عبد الله، بالرغم من رضاي بخدمته وإيثاري إياه على أهلي، ولئن جار الدهر عليّ فأسمعني منك ما أكره، فإني متقبل هذا منك إذا سمعت حديثي.

فأنصتت إليه زينب فاترة متكلفة، وقد هوت نفسها إلى قرارة ضميرها فسرت في مشاعرها رقة لا تكاد تبين، وبان على وجه زينب جزع عميق فقال: اسمعي يازينب..

كان الليل دامساً، وكنت وأمي سعدى نزمع الرحيل من غدنا لنزور أخوالي في منازل طيئ بين الجبلين أجأ وسلمى، وكان أبي حارثة بن شراحيل سيد بني كلب يخشى فراقنا، فلما نزحنا عن الديار شق عليه هذا النزوح وشغل باله طول غيبتنا فكان يتلهى عن قلقه وضيقه ببسط الطعام للمساكين والضيفان، ففي ذات ليلة أوقد ناره وعقر ناقة له ونحر جزوراً، فأقبل عليه السائل والمحروم، ولاحت من عنده على مشارف الحمى نار موقدة، قصد إليها جماعة من الشذاذ والصعاليك، إذ عرفوا أنها لضيفان الليل، فأموا قرانا، ونعموا بكرم أبي حارثة ثم انقلبوا مع الفجر في طريقهم، ومرت بضعة أيام فإذا

نبأ يتلقاه حارثة مروعاً فزعاً، فقد علم أن نفراً من الصعـانيك أغاروا على أطراف طيئ حيث كنت وأمي سعدى ضيفين، فاستلبوا إبلا وسبوا فتية ومالا، وكنا في السبي فسحبونا عرض البيداء، مبعدين عمّن يقتفي آثارهم بعد نهبهم هذا، فلما بلغوا مأمنهم جلسوا يتحدثون بكرم الرجل الذي أطعمهم وأكرمهم منذ ليال، فعرفت أنه أبي ولما انتسبت لهم حسبوني كاذباً فضربوني، وانطلقوا بنا إلى حيث ألقوا رحالهم، ثم جاء بي خاطفي زائراً من مكة في موسم عكاظ، فاشتراني منه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة، ولما تزوجت الرسول وهبتني له فقمت على خدمته وآمنت برسالته، وصبرت على ما صبر من أذى الكافرين، وانتهى خبري إلى أهلي، فسارعوا إلى الرسول بالفداء، ليعودوا بي إلى حارثة وسعدى فأبيت العودة معهم وبعثت إلى أبوي وأهلي بشعر حزين قلت فيه إني قطين البيت عند المشاعر، ورجوت أن يكفوا عن الوجد الذي هدهم فإني بحمد الله في خير أسرة، ولكن الشوق خامر حارثة وهزه الحنين إليّ فجاء على هرمه وكبرته مستغيثاً بمحمد، ملحاً في أن يردني إليه على أن يرفع له في الفداء، فخيرني الرسول بغير فداء ولاعطاء، وقلت لهم:

- إني رأيت من محمد شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً..

فلما سمع الرسول قولي أخرجني إلى الحجر الأسود وقال:

- اشهدوا يا قوم أن زيداً ابني يرثني وأرثه..

وكان محمد مني بمكان أبي وأمي، ثم آخى بين عمه حمزة وبيني، أفيكون مولى رقيقا من كانت هذه سيرته أيتها الهاشمية العصماء؟

وكانت زينب تستمع له كالحردة الغضبى، فلما استرسل في حديثه كانت تنصت له في ثقل ونعاس، ثم أطبقت جفونها على أن زيداً مولى من الموالي، وأن حظها في الحياة أن تكون زوجاً لخادم الرسول الذي أحب أن يجبر خاطر مولاه فدعاه بابنه حناناً وبراً..

ونامت زينب عصية القلب والدمع. وفي طويتها أن تعيد شكاتها إلى محمد لعله يقضي فيها قضاءه.

ولم تغمض جفون زيد، فباتت عالقة بالنجوم تعدها على عادة العرب. إذا أضناها الأرق فتكون لهم صفحة السماء سلوى بنورها وشهبها. وتلوح لهم نجومها بالعزاء.

لقد مر بخاطر زيد ماضيه الذى نفضه لزينب وكشف عنه فلم يحرك فيها عاطفة، ولم يستطع هذا الماضى الناصع أن يفتح عينيها وقلبها، فكان زيد كمن وقف على حرف الهاوية فلا هو يستطيع خلاصاً، ولا رجلاه تنزلقان به فتتردى ويستريح، إذ كان يحب زينب ويعلل نفسه بمياسرة تكون منها بعد فرك ونشوز، وقد طاف بباله إعراضها عنه واستكبارها، ورنت فى سمعه مرة أخرى كلمتها العاتية النابية التى خاطبت بها محمداً يوم خطبها له:

- لا أرضاه لنفسى..

فوجم زيد لهذا الخاطر، وأحس فى نفسه شعور النقمة والهوان، ومالبث أن تبسم بقناعة ووداعة حين ذكر جواب الرسول لزينب:

- ولكنى رضيته لك..

وتجاوبت فى قلبه الآية الكريمة التى نزلت بهذا الشأن «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيداً».

وأقبلت ضحوة النهار فأخذ زيد سمته إلى مجلس الرسول فقرأ محمد فى وجهه كدرة كان يراها كل يوم ويحس أن زيداً يكاتمها إبقاء على رضاه، فأخذ الرسول يسأله عن أمره حتى شكا إليه بثه وجواه، فقد أدرك محمد أن زيداً يضيق بهمه، فأحب أن يسرى عنه ويفرج كربه بإيناسه ومواساته.

كانت حياة زيد مع زينب بنت جحش مثل موج البحر، وكانت نفساهما مثل الشاطئ يطحمه مد البحر ثم يرتد عنه جزره فإذا اشتكى زيد وبكى لعجزه عن أن يبلغ رضى زينب كانت زينب تستكين حيناً وتذعن لحكم القضاء ويحملها محتدها النبيل وخلقها الكريم على الرضى بالمكتوب ولا يلبث هدوؤها

أن ينقلب بعد حين ثورة ناقمة، فتستعلى على زيد وتشكوه إلى سيده وأبيه بالتبنى محمد بن عبدالله فيرد عليها حلمها ويشفق أن تتجاوز حدها فتؤذى زيداً بعنتها وزهوها.

ومضى زيد فى دفعها عن غلوها فى هذه الخيلاء، فما ازدادت إلا انصرافاً عنه، وموجدة على نفسها، ويجاهده الرسول على أن يمسك عليها ويتقى الله فيها، حتى أسرف زيد على نفسه واستيأس من لين زينب، وزينب قد تبرمت بهذه الحياة ولم يجدها صبر ولا نصيحة، فألحت فى تسريحها، واستجاب لها زيد كرها ورغماً، ولا يكاد زيد يرسل كلمة الطلاق كما يرسل الصياد الغزال فينطلق فى البرارى، حتى تنفلت زينب من رباطها وتمضى لوجهها، فيتلقاها النبى ويجئ بها إلى بستانه محتملا أذى قومه بألسنتهم، لأمر قضاه الله وأراده الرسول، فقد نفى عن زينب ماوهمت فى مس كرامتها وألغى حكما عند قومه كان يحرم على المرء الزواج من زوجة ربيبه بعد موت أو طلاق.

وخاض الناس فى الحديث عن زينب وزواج محمد بها، فقال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض إن محمداً تزوج امرأة حبّه وربيبه زيد، بل تزوج امرأة ابنه.

وما كان زواج الرسول إلا بأمر الله. لتبطل بدعة التبنى عند العرب، فقد كان من عاداتهم أن يتخذوا أدعياءهم كأبنائهم، يلصقونهم بأنسابهم. ويرثونهم ويورثونهم كما كان يفعل الرومان، فشاء الله لنبيه أن يتزوج زينب لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم. إذا كان نصيبهم الطلاق، وقد أبدى الله ما أخفى محمد فى نفسه خشية الناس، فنزلت الآيات البينات التى اطمأنت بها القلوب وبرئت من آثامها الظنون، وأنصفت زيداً فى عتبى الرسول.

عرف زيد بن حارثة محمداً قبل نبوته وعاشره فى بيته وبين الناس فوجد من سماحة خلقه وعدل معاملته ما جعله يفضله على أبويه وأهله، ولولا إيثار محمد إياه وبره به واتخاذه ولداً لما آثر زيد حياة الرقيق على حياة الحر الطليق،

فكان يطيع محمداً فى كل ما يأمره به حتى أعياه أمر زينب، فتفادى عنت زينب بطلاقها كارهاً راغماً.

وحين انجاب عن زيد ذلك الظلام الذى سد آفاق عيشه أحس انطلاقاً من أغلال الزوجة المتأبية، ولم يكد ينعم براحته وحريته حتى استحالت نعماه إلى هم دفين، وأسف على تفريط، ولكن الإيمان ملأ قلبه واحتل الدين عقله وحسه. فغلبه كل هذا على أمره وشغله عن دنياه وآخرته.

ولم يعكر هذا المكروه صفو صحبته للرسول، فقد احتمله زيد راضياً بقضاء الله خالصاً لنبيه الذى أقام على حبه وإيثاره فاختاره للسرايا، واستعمله على المدينة كلما خرج لمغازيه، وقد زوجه أم أيمن حاضنته وجاريته التى ورثها عن أبيه وأعتقها حين تزوج خديجة بنت خويلد، وكان يدعوها الرسول أماه، ويقول عنها إنها بقية أهل بيته. ومما حببها إلى زيد، وقربها إلى قلبه أن محمداً قال: من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن، وقد أنجبت لزيد أسامة فنسى فى ولده ما عانى فى ماضيه، وكان النبى يقرنه فى الحب والدلال بسبطه الحسن بن الزهراء، ويتعاهده بالبر والحنان.

ومات زيد شهيداً فى وقعة مؤتة موعوداً بالجنة، وبكاه الرسول طويلا، واستغفر له كثيراً وقد ذكر جهاده وبطولته فى «أحد» وفى «بدر» وما أبلى فى الدين وما احتمل فى حياته وغربته من خطوب.

وعاشت زينب بعد زيد فى نعمى وعافية، فقد تولى الله زواجها من رسوله الكريم، فصامت شهرين شكراً لله الذى أعزها وأنقذها على وهمها من شعور الضعة والهوان؛ وغدت محسودة فى قريش على هذا الزواج، حسدتها كثيرات، فما استراحت من لغوهن وغيرتهن قبل زواجها بالرسول وبعده.

وأبدل الله قلب زينب الذى لم تملكه فى بر زيد وحبه ورحمته، فطابت نفسها عند الرسول وفاض قلبها بالبر والحنان، فصنعت المعروف وبذلت الصدقات وكانت غوث اللهيف وعون الضعيف، تكسو وتطعم، وتكرم وترحم، ويذيع لها صيت فى السماحة والندى، فقد جعلت تغزل الصوف وتصنع الكساء ثم تبيعه

لتبر بثمنه الفقراء، فكانت سباقة إلى ما تفعله اليوم بعض الكرائم البارات إذ يعددن أسواقاً خيرية يبعن فيها ما تجود به مكارمهن من طرف وأشغال يدوية لبر المساكين في ثمنها.

كانت زينب الأسدية صوامة قوامة بذكر الله. ومن يدرى لعلها صنعت المعروف وبرت المعوزين تكفيراً عما تقدم من ذنبها في حياة زوجها قبل الرسول، وما عرف عن زينب غير نشوزها على زيد، فقد كانت تكره الدس والفتنة وتستعيذ بالله من شر المفسدين والحاسدين، ولما سألها الرسول عن حديث الإفك، وما انتهى إليها من أخبار قالت:

- والله ما علمت عن عائشة إلا خيراً..

وكانت زينب تستطيع أن تدس في هذه النهزة ما تشفى به الضرة الغيرى التي أضنى قلبها مرض الكيد والحقد، ولكنها ما قالت إلا خيراً ولا شهدت إلا صدقاً.

ومات الرسول عن زينب وروحه متشوقة إليها، تتمنى أن تلحق به إلى قبره، وقد قال يوماً لنسائه وكن جميعاً يتلهفن على لقائه حياً وميتاً:

- ستلحق بي أطولكن يداً.

فالتمست أمهات المومنين تأويلا لقول الرسول، وكانت كل منهن تتمنى أن تكون ذات اليد الطولى.

ولم يكن طول اليد الذى عناه محمد وأراده إلا السماحة والندى والمعروف، وكان كل هذا تطوله يد زينب.

وقد توفيت في خلافة عمر الذى كان يتفقدها ويكرمها ويرسل إليها حصتها من المال فتمنحه المعوزين من أهلها وجيرانها حتى أنها أعدت كفنها قبل وفاتها فوصت بأن لا يضيفوا إليه غيره، وإذا جاءهم عمر بن الخطاب بكفن آخر فليكن إحساناً لغيرها وصدقة عن روحها.

جويرية بنت الحارث

(الخزاعية)

«ما رأينا أسيرة كانت خيرا على أهلها من برة، من أجلها غدا كل الأسرى والسبايا أحرارا»

كانت منازل بنى المصطلق الذين عادوا النبى وصحبه ظلماً وكيداً غير نائية ولا منحرفة عن المدينة، يعيش فيها نفر من خزاعة الذين تأبوا على الرسالة والرسول، فلما حل محمد فى المدينة ظافراً ونقض اليهود بعد شهور حلفهم وميثاقهم قضى وعى المسلمين وجهادهم على كيد الغادرين، وأخذ محمد يرسل الجيوش لنضال المناوئين الذين خالفوه طوعاً أو خالفوه كرهاً وعدواناً، فهال الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق انتصار النبى ودعوته. فراح إلى القبائل يدعوها لقتال محمد ودس الفتنة من أجله، فإن رسالته حققت نصراً كبيراً فى مدة قصيرة.

ولما علم محمد بهذا التحريض الجديد سارع بجيشه إلى حشود بنى المصطلق قبل أن يعد الأعداء عدتهم بالغدر والمكيدة، فلم يطل القتال بين الفريقين طويلا إذ انهزم بنو المصطلق وخسروا المعركة فغنم المجاهدون الظافرون متاعاً وماشية وسبايا وأسرى، وكانت منهم برة بنت الحارث كبير الأعداء من بنى المصطلق.

وبرة هذه كانت جميلة فى ريعان الشباب ونضرة الملامح تزوجها ابن عمها مساعف بن صفوان الذى قتل فى هذه الوقعة السريعة فانضمت إلى السبايا اللاتى كن مع الأسرى غنائم، وقد حط ركب الرسول للراحة والاستسقاء بجوار ماء المريسيع، وهب قبيل الفجر ليدخل المدينة مع النهار.

ولما أنزل هودج عائشة أم المؤمنين لم تكن فيه، وكان دورها فى مصاحبة زوجها، فاشتد قلق محمد وشغله هذا القلق عن النظر فى تقسيم الغنائم. وأخذ يسأل عنها حتى رآها مقبلة على جمل صفوان السلمى، وتحير الرسول فى أمر تأخرها فقالت:

- غادرت المعسكر إلى بعيد لقضاء حاجة لى، وهناك تفقدت عقدا كان فى عنقى، وقد نسيت نفسى وأنا أبحث عنه، وكنت وحدى فلما عدت إلى

المعسكر لم أجد أحداً ففهمت أنهم ارتحلوا وحملوا الهودج دون أن يدركوا أنى لم أكن فيه لخفة جسمى فوقفت أرتقب رجعة منهم للبحث عنى حتى مر صفوان ابن المعطل السلمى راكباً جمله فطلبت إليه أن ينقلنى إلى المدينة، فنزل عن الجمل وحملنى عليه، وكان بعد ارتحال الجيش ينتظر الشروق ليجمع ما قد يكون نسيه أو وقع فى الظلام.

ولما وصلت عائشة إلى بيت الرسول ارتدت إليه الطمأنينة بعودتها وكان مشغول البال بتأخرها وبما نجم من خلاف على السقاية عند آبار المريسيع حتى ردد رأس المنافقين عبد الله بن أبى كلمات نابية جافية بحق المجاهدين كادت تؤدى إلى الفتنة بعد المعركة لولا أن سارع ركب الرسول بالانفلات والرحيل عن منازل بنى المصطلق.

وعاد الأنس والبشر لمنزل محمد بعودة عائشة، وجلس يستريح ويفكر فيما مضى وفيما هو آت، وعائشة بين يديه تسعى إلى خدمته ومرضاته فلما طرق بابها وفتح عن سيدة تستأذن فى الدخول للقاء الرسول رأتها عائشة فعجبت لشأنها ووجمت لشكلها إذ شهدت صبية وسيمة كانت من سبايا بنى المصطلق وقد أرادت أن تعرض مسألتها على النبى وتلتمس عونه ومروءته، فلم تستطع عائشة أن تردها، بل دخلت على محمد معها. وقالت الزائرة:

– يارسول الله، أنا برة بنت الحارث بن أبى ضرار، سيد قوم بنى المصطلق. وقد أصابنى من البلاء ما زاد فى همى إذ قتل ابن عمى ووقعت فى السبايا بسهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسى، ولكن ثابتاً غلا فى الفدية والعتاق فرأيت أن ألجأ إليك فى محنتى مستعينة بك على أمرى.

فعاد الرسول بخاطره إلى أبى برة الحارث بن أبى ضرار زعيم الكافرين المكابرين فشق عليه أن تهان بنت عزيز قوم ذلت بسبيها وبعدها عن أهلها، ولم يطل به التصور والهاجس فقد خطر له أن يعصمها من الهوان والتهديد. ويجعل

منها وسيلة للتخفيف عما أصاب قومها لعلهم يعودون إلى الحق والصواب فقال الرسول لبرة :

- هل لك فى خير مما ذكرت؟

فأجابت: وما هو يارسول الله؟

قال: أفتديك وأتزوجك!

فأشرق وجه برة وضحكت عيناها ، ورضيت بأن يمنحها الرسول حريتها وأن تكون من أمهات المؤمنين بعد إسلامها.

وتسامع المؤمنون بهذا النبأ وعلمت زوجاتهم بأن النبى قد خطب برة وأعتقها صوناً لكرامتها وتقريباً لقومها ، فاقتدى به الرجال فى تسريح الأسرى والسبايا أحراراً قائلين:

- هؤلاء أصهار محمد وليسوا من الأرقاء والإماء.

ويبدو أن الرسول لم يحب اسم برة فسماها جويرية كما سمى زوجته برة بنت الحارث الهلالى ميمونة، وانضمت بنت الحارث إلى نساء النبى معززة مكرمة، معرضة لما قد تتعرض له بينهن من تنازع وغيرة وتنافس فى التحبب إلى رسول الله.

على أن أبا برة حين علم بوقوع ابنته فى السبايا راعه هذا المصير فلم يجد بداً وهو المهزوم والمغلوب على أمره من أن يسعى إلى المدينة ومعه من الإبل ما يكفى لافتداء بنته، وسار من توه إلى الرسول قائلا:

- جئت بفدية بنتى، فإن مثلها لا يسبى ولا يعد فى الإماء.

فأجابه محمد:

- برة موفورة الكرامة ومن أجلها غدا الأسرى والسبايا أحرارا.

وقد شئت أن تكون لى زوجة، وهأنذا أخطبها إليك على أن آتيها بصداق، وأرعاها بمودة وإحسان.

ولان قلب الحارث وتفتح للإيمان بالله ورسوله، فخرج من لدن محمد راضيا تائبا، وقد تحول العدوان فى نفسه إلى ولاء وتقدير لهذه المعاملة النبيلة، وهذه الرسالة التى يؤديها الرسول إلى العرب لجمع الكلمة والقلوب، وتحرير الأنفس من الأوهام والطغيان.

وأصبحت جويرية بنت الحارث من أمهات المؤمنين سعيدة بدينها وزوجها مشاركة ضراتها فى التعبد وطاعة الرسول الذى علمها ما لم تكن تعلم، وقد أبت أن تكون فى الصف الذى يجمع بين حفصة وعائشة وزينب فى التنافس والتهامس من أجل زوجات النبى الساعيات إلى الغلاب عند الزوج العطوف الكريم.

لقد تركت جويرية هؤلاء فى متاعبهن النفسية وضمنت لذاتها الوقار والكرامة فى جنب الزوجة الصبور والمجاهدة الماجدة (أم سلمة) هند بنت زاد الركب (عبدالله بن أبى أمية) التى تزوجها الرسول بعد أن سجلت فى تاريخ الجهاد صفحات مشرقة بالبطولة والفداء، وباتت أرملة لابن عمته الصحابى المهاجر عبدالله بن عبدالأسد بن هلال المكنى بأبى سلمة.

ولم تكن أم سلمة شابة فتية شغلتها أنوثتها عن دنياها، بل كانت فى كهولة موقرة، عرض عليها الزواج أبو بكر ثم عمر لتكون فى بيت يرعاها ويعتز بها، بعد أن أصبحت أرملة ذات يتامى فاعتذرت وآثرت أن تعيش لهم متفرغة لخدمتهم، لكن محمداً شاء أن يواسيها بنفسه وهى الأرملة الكهلة بطلب يدها وضمها إلى بيته على أن لا يتخلى عن عيالها فى معيشة أو عناية.

وانصرفت جويرية إلى التعبد والاقتداء بأم سلمة فى ذكر الله وما مر بحياتهما من هول وجهاد وبغتات، وكانت عائشة تنظر إلى جويرية على حسبان وخشية من أن تغلبها بجمالها. ثم شغلت عنها بحكاية الإفك التى روجها وأشاعها ابن سلول الذى أشعل نار الفتنة فى الشجار على السقاية من الآبار.

وما كان حديث الإفك إلا دساً لئيما من زعيم الخزرج ابن سلول الذى لم تنفع معه مجاملة الرسول لعله يرتدع ويكف عن الوقيعة والدسيسة بين المؤمنين والأعداء، وقديماً كانت أخبار السوء أكثر نفاقاً من أخبار الخير والمعروف فما همست شفاه دنيئة بأن عائشة تخلفت عن ركب الرسول العائد إلا لتعود مع صفوان حتى سرت الهمسات باللمزات وهى بنت الصديق الذى لم يوصم بأخف ريبة قبل الإسلام وبعده، وقد عرف بيته بالتقوى، وكانت عائشة فى الطفولة وعلى الحداثة أكبر من سنها فى رصانتها وعصمتها لكنها وشاية مكشوفة للوقيعة بين محمد وأعز صحبه وأقرب الزوجات إلى قلبه، حتى ظهرت الحقيقة والبراءة.

تلهت عائشة عن جويرية فلما أظفرها الله على الأعداء عادت إلى منزلها وضراتها، تتسلى وتقلب وجهها فيمن حولها، وجويرية مشغولة مع أم سلمة بالعبادة والأخذ بأصول الدين، وقد بقيت على زهادتها وعزوفها عن المباهج، حتى توفيت بعد النصف الأول من العصر الأول للهجرة فى عهد معاوية، وكان مروان بن الحكم حاكم المدينة فصلى عليها وبقية الصحابة والتابعين وأودعوها مرقدها الأخير فى البقيع حيث أودعت نساء النبى وأمهات المؤمنين.

صفية بنت حيي

(النضيرية)

«ألا قلت لعائشة وحفصة: كيف تكونان خيرا مني وزوجي محمد، وجدي هارون وعمي موسى»

من حديث النبي ﷺ لصفية

توالت المكايد والمعارك بين المؤمنين وأعدائهم من المكابرين المستهينين بدعوة محمد بعد وصوله إلى المدينة، فى السنة السابعة للهجرة. وكان الرسول يرى كبار اليهود يتوددون إليه رياء وزلفى، فاصطنع الموادعة معهم ليهدهد من عنفوان كيدهم وحقدهم، وقد رضى بتوثيق العهود بينه وبين زعماء هؤلاء الأعداء الذين كانوا يشتدون على الأوس والخزرج خشية أن يميلوا إلى الإسلام، فراحوا يخادعون النبى وصحبه ليستعينوا بهم على مناوأة الذين يخالفونهم فى الدين من المسيحيين، وقد فاتهم أن محمداً كان أدرى بما بيتوا له ولرسالته، فإن أحبار اليهود قرءوا فى التوراة أن نبياً من العرب سيظهر بدين جديد يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فلما رأوا محمداً بعلامات هذا النبى ورسالته أدركوا أنه هو الرسول المرصود، فأضمروا له العداوة والبغضاء وأظهروا المجاملة والرضا حين جاء المدينة مهاجراً من مكة، نازلا قباء فى بنى عمرو بن عوف فأقبل على محمد فيمن أقبل من كبراء المدينة أبو ياسر وحيى بن أخطب وخرجا من عنده وهما أشد عداوة له ولرسالته.

وتنادى كبار اليهود للمشورة فيما ينبغى أن يجبهوا به الدعوة الإسلامية، فقد خافوا الهزيمة والضياع إذا استجاب لها جماعة منهم فرأوا أن يعملوا على دس الخلاف والتنافر بين أهل المدينة، وأن ينقضوا العهود ويغدروا بمحمد وأنصاره، فكان حيى بن أخطب أسرع جماعته إلى تدبير الفتن وإغراء المضعوفين منهم بالكيد للمؤمنين، ولما تأكد الرسول مما يبيتون ويفتنون أنذرهم بالحصار والطرد من المدينة، فشق على كبارهم هذا الإنذار ومضى حيى بن أخطب إلى قريش وغيرهم من المعاندين يوغر صدورهم شراً ويملؤها حقداً وكيداً، وراح هؤلاء المنافقون إلى القبائل والأحزاب يحضون على نقض العهود وتحدى الرسول بالمشاكسة والعناد، فأمر محمد بطرد الغادرين من المدينة، ولما تأبوا عليه ضرب عليهم الحصار فانهزموا وخابوا، ثم عاد حيى بن أخطب إلى العدوان والتحدى حتى حق للمؤمنين أن يقاتلوا هؤلاء الأعداء الغادرين، وكان الحكمان

فى جزاء الناكثين عهدهم وميثاقهم حليفين لفريقين منهم، هما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة اللذان أمرا بقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، وكان قصاص الشرير الخطير حيى بن أخطب ضرب عنقه بالسيف فهاج كيد اليهود فى خيبر أحصن معاقلهم، وما كاد جيش الرسول يلتف بمن أنذرهم وهددهم حتى تداعت خيبر ونزل بحصونها الخراب، فقد انتصر الحق على المبطلين وظفر نضال المؤمنين بمن آذوهم وكادوا لدعوة الرسول.

وجاء موكب السبايا فى هوان وعويل وفيهن صفية بنت حيى بن أخطب عدو محمد ودعوته، لكنها ما كانت فى قلبها وشعورها على مذهب أبيها منذ سمعته وهو سيد قومه يحدث أخاه أبا ياسر بكرهه لمحمد وأنه سيبقى عدواً له ما بقى فى الحياة، وليس عجباً أن تخالف صفية فى سرها رأى أبيها وميله، فقد كانت مثلها رملة السفيانية التى آمنت بمحمد وكان أبوها أشد مقتاً له من حيى بن أخطب.

وتزوجت صفية مرتين من زعماء اليهود فى بنى النضير، سلام بن مشكم، ثم كنانة بن الربيع الذى ضربها ولطمها على خدها وعينها لأنها ذكرت محمداً بالخير والإعجاب أمامه، فهاج وغضب وخرج عن طوره وهو يحذرها من ذكره وينذرها بالفراق والطلاق. فلما وقعت صفية فى السبايا بعد هزيمة خيبر وأنكر زوجها كنانة أن يكون لدى قومه مال، وهم الذين تعودوا اختزانه واستغلاله فى الغدر والأذى- حل دمه بعد أن عقد اليمين والشهود على الإنكار والفرار.

أما الذين خضعوا للأمر وكفوا عن المنكر فقد عطف عليهم الرسول وصحبه وأعطاهم كتب التوراة التى لقيها المسلمون فى المغانم بعد الفتح والانتصار.

وأما السبايا فقد تقاسمهن الظافرون، وكانت صفية موضع تنازع فى القسمة والغنيمة، فلما علم محمد أن فى النساء سيدة بنى النضير بنت عدوه

حيى بن أخطب أرسل بلالا وراءها، وعاد بها صاحب الأذان وبابنة عمها إلى مجلس محمد، وفى الطريق شهدت السبيتان جثث القتلى من أهلهما فبكتا بحزن وعويل حتى مثلت كل منهما أمام الرسول بردائها الممزق ودمعها اللهيف، فنظر إليهما محمد مشفقاً مترفقاً ولام مؤذنه لأنه لم يفطن لمروره بالقتلى من الأعداء دون أن يعبأ بشعور السبيتين.

وراقت صفية نبى العرب والإسلام فرآها تنظر إليه على استحياء واستعطاف، فألقى رداءه عليها ليؤذنها بأنه اختارها لنفسه تهويناً عليها ما يكون بقلبها مما أصاب أهلها، وأرسل إلى دحية الكلبى الطامع فى صفية بأن يأخذ ابنة عمها.

وأسلمت صفية بعد أن خيرها الرسول بين دينه ودينها فأعتقها وكان عتقها مقدمة زواجه منها، ففرحت صفية وردت إليها كرامتها حين أرادها الرسول زوجة يعوضها حنان الأهل وتقدير القوم. لكنها تأبت عليه فى طريقه إلى المدينة، فلما علم أنها تخشى عليه قرب اليهود زال ما بنفسه من وجوم نحوها والتمس لها المعاذير فى تأبيها، وكان الجيش يغذ السير صوب المدينة. لكن خبر زواجه وصل إلى زوجاته قبل وصوله فأنزل صفية فى منزل صديقه حارثة بن النعمان، وما كادت تستريح حتى أقبلت عليها نسوة الأنصار بالتحيات والاستطلاع، وجاءت نساء النبى متخفيات رانيات إلى ملاحة صفية ودمائثها، ولم تستطع عائشة أن تبقى بعيدة وتسبقها ضراتها إلى المنزل الذى حلت فيه الزوجة الجديدة فراحت محجبة متنقبة للاستطلاع. ولما انسلت من بين النساء تريد الانفلات لحق بها الرسول وقال لها مازحاً:

- كيف رأيتها يا شقيراء؟

فنترت عائشة يدها وبهتت، فإن الغيرة من هذه الضرة أشعلت النار فى صدرها فأجابت بزهو وتهكم:

- رأيت يهودية!

فرق لها محمد وطيب خاطرها قائلا:

- أسلمت صفية وحسن إسلامها فلا تعيدى ما قلت، وإنك لتعلمين مكانتك عندى والأسباب التى تدعونى لمثل هذا الزواج فلا تغضبى....

ودخلت صفية بيت محمد على حيرة بأمرها، فإن أزواجه تسامعن بأخبارها وشهدن من بعيد جمالها، فأيهن تختار صديقة ورفيقة تؤنس غربتها وتحنو عليها؟

وهداها عقلها إلى الصف الذى يضم الزهراء بنت الرسول وقد أهدت إليها عقداً من الذهب كان لا يزال فى صدرها، واتخذت من عطف زوجها حماية لها من لمز ضراتها كلما اشتدت بهن الغيرة واحتدم الخصام.

وكان أشد ما يؤلمها ويحز فى نفسها تفاخر الزوجات بأنهن عربيات قرشيات إلا هى، فإنها لديهن اليهودية الأصل وإن أسلمت، فلما وصل إلى سمع الرسول هذا اللمز الجارح قال لصفية:

- ألا قلت لعائشة وحفصة: وكيف تكونان خيراً منى، وزوجى محمد، وجدى هرون وعمى موسى؟

وفى مرضه الأخير سارعت أمهات المؤمنين جزعات حول فراشه متسائلات عما يحس ويريد، فقالت صفية:

- وددت يا نبى الله لو أن الذى بك فىّ!

فتغامزت نساء النبى من قولها لكنه رد همساتهن وإشاراتهن بقوله:

- إنها والله لصادقة...

وكان المرجو أن يزول التحاسد واللمز بين أمهات المؤمنين بعد وفاة الرسول، فإن هؤلاء الضرات لن يجدن فى بعض السوانح ما يسئن به إلى صفية التى

عرفت بلباقتها وتدبيرها، فلا ينفس عن كربهن تلقاءها إذا عاودتهن الغيرة والشحناء إلا بلمزها فى نسبها، وما أنكرت صفية أصلها، فقد بقيت تصل أهلها حتى أن جارية لها راحت إلى عمر بن الخطاب تخبره بأن صفية تحب السبت ولا تجد حرجاً فى الإحسان إلى نفر من ذوى قرباها؛ فلما سألها عمر لم تنكر بل أجابت:

- أما السبت فإنى لا أحبه منذ أبدلنى نبى الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحماً...

وقد سألت صفية جاريتها الواشية:

- ما الذى حملك على هذه الوشاية؟

فأجابت بندامة: الشيطان!

فغضبت صفية وقالت لها: اذهبى فأنت حرة!

أرادت الجارية الإساءة فردتها صفية بالإحسان الذى طبعت عليه، وقد وصَّت بكل ما تملك بعد موتها للمعوزين، ولما حوصر الخليفة عثمان بن عفان فى داره خرجت صفية من بيتها ثائرة من أجل عثمان لصد الساخطين عليه من الذين حبسوه دون طعام أو شراب. وكانت بجواره فركبت سلما بين دارها وداره لتنقل إليه الماء والغذاء.

ولما خرجت لتهدئة الناقمين ضربوا البغلة التى كانت تركبها دون أن يعرفوها.

وكانت وفاة صفية فى عهد معاوية، وفى مطلع النصف الثانى من القرن الأول للهجرة، وقد دفنت فى البقيع حيث دفنت أمهات المؤمنين.

رملة بنت أبي سفيان

(السفيانية)

«في ديار الغربة في مهجرها في الحبشة، واساها النبي ﷺ، فتزوجها عن طريق التوكيل ودفع النجاشي صداقها هدية منه للنبي عليه الصلاة والسلام»

كان لمحمد فى قومه وأهله ألد الأعداء، فقد هالهم وأعمى بصائرهم ما جاء به من عند الله فأقض مضاجعهم وحيرهم فى أمورهم وشعورهم وهم الذين أحبوه صغيراً وكرموه كبيراً إذ جعلوه حكما لهم فى خصوماتهم قبل أن يبلغ الثلاثين، فما باله يأتيهم بما يبطل دينهم الذى وجدوا عليه آباءهم؟.

لقد ثاروا ضده وجبهوه بالإنكار والأذى واتهموه بالسحر والشعر، وقال عمه أبو جهل حين ألقى نظرة على دار خلت من أهلها أدركتها الوحشة والفجيعة.

- هذا عمل ابن أخى محمد، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا، وكانت هذه الدار الخالية لعبيد الله الأسدى ابن عمة الرسول، فعدا عليها أبوسفيان بن حرب وباعها نكاية فى أهلها الذين آمنوا بمحمد واتبعوه..

أما أبو لهب فقد التهب حقداً وكيداً، وراح يصب غضبه على من يلقاهم من المسلمين السابقين لا يترفق بنسيب ولا غريب، وقد شمخ بأنفه كل من كان على شاكلته من قريش، فراحوا إلى أبى طالب الذى رعى محمداً صغيراً وفضله على أولاده وبقى حاميا له فى رسالته، وإن لم يدخل فى دينه قائلين له:

- إن لك سنا وشرفا ومكانة فينا، وقد صبرنا على ابن أخيك لكى تكفه عنا أو نصده نحن حتى يهلك أحد منا!

لم يعنفهم أبو طالب وإنما ردهم بالمعروف وطلب إلى أهله وعشيرته أن يحموا محمداً من أذى قريش، فإن يكن على الحق فسيظهر هذا الحق وسيكون لهم من شرفه وعزته نصيب، وإن لم يكن عليه فإن الناس سيتولون عنه كما تولوا عما سبقه، فاستجاب له أكثرهم إلا أبا لهب فإنه ازداد طغيانا وعتواً.

وأما أبو سفيان كبير الطواغيت، فقد هاج وماج لانتشار الدعوة وخيبة القائمين ضدها، وهجرة الذين فضلوها على الإقامة بينهم.

وكان بين هؤلاء الذين فروا بإيمانهم وهاجروا إلى الحبشة بنته رملة التى رافقت زوجها عبيد الله بن جحش، فدوخت أبا سفيان هذه الضربة التى أصابته بإسلامها وسفرها، لكن رملة الفاضلة المؤمنة استوحشت فى غربتها القصيرة لولا مرافقة زوجها وصواحبها.

وقد عانت رملة فى اغترابها وهم ولادتها فى أرض بعيدة، فلما وضعت حملها تلقاها وجه أنثى سمتها حبيبة، فشغلتها العناية بها عن بعض ما كانت تكابده وتلقاه، فإن زوجها خانها فى الدين الجديد وارتد عنه ودان بعقيدة الأحباش الذين اندمج فيهم، فشاع أمره بين المهاجرين، وخجلت رملة أن تلقاهم بقهرها وكربها، فانطوت على نفسها تحنو على حبيبتها وتدعو الله أن يجعل لها مخرجا مما كانت فيه حتى وصلت أخبارها إلى أهلها الحاقدين، فحملوها بالغل والشماتة والتربص.

ولما علم الرسول بهذا النبأ أدرك ما قد يكون لحق هذه المؤمنة السابقة من المساءة والخيبة فى غربتها وحياتها، فأرسل إليها يخطبها، ولم تكن إذ ذاك فى حداثة ومستهل شباب، بل كانت نصفا راجحة فعرفت الصبر على ما أصابها وقد ردت الطمأنينة إلى قلبها حين كرمها الرسول فى بلد النجاشى ووكل فى زواجه منها خالد بن سعيد أحد المهاجرين الكبار. فلما علموا أن محمداً وصحبه أصبحوا فى مأمن من عدوان قريش قرروا العودة، فقد اشتد حنينهم إلى الوطن وازدادوا إيمانا وتثبيتا فإن محمداً علمهم بسيرته ودعوته ألاّ يهابوا الردى فى سبيل الله، وهذا دينه الحق يتغلغل فى القبائل ويتسلل إلى البعيد والقريب من أرض العرب، ولم تخش أم حبيبة على نفسها من أبيها الذى هاج لإسلامها وهجرتها إذ غدت من أمهات المؤمنين وهى فى اغترابها ومحنتها، ولعل الرسول فى دعوته الحكيمة لاستهواء الأفئدة النافرة والنفوس الطاغية كان يجد الوسيلة لالتماس القربى من أهلها فى الزواج، فإذا كان قد أرسل إلى أنصاره المهاجرين

أن يطلبوا له أم حبيبة زوجة مع أمهات المؤمنين اللاتى سبقنها إلى منزل الرسول فلكى يهدهد من سخط أبيها وعنفوانه، ويتخذ من هذا الزواج عوناً على الجهاد وقرابة قريبة تمهد لما كان بسبيله وما اعتزم من فتح ودعوة بعيدة.

كان محمد عائداً من خيبر وقد أظفره الله على الأعداء فى بلاده ووصلت رسالته وسفارته إلى كثير من الكبراء والملوك، فتلقته المدينة بالبهجة والتهليل، وشارك العائدون من الحبشة فى موكب اللقاء وهم أشد شوقا إلى الرسول، وكان زعيمهم جعفر بن أبى طالب يتقدمهم بالتحية والهتاف فأقبل عليه محمد بالعناق وقال له:

- لا أدرى بأيهما ظفرنا وسررنا، بعودة جعفر أم بالنصر على خيبر؟

واحتفلت نسوة المدينة برملة أم المؤمنين التى دخلت بيت الرسول مكرمة معززة، لا تفوتها أعين زوجاته السابقات وهن يعرفن مكانة أبيها فى قومه كما يعرفن مكانة عائشة لدى الرسول ومكانة أبيها عند محمد وصحبه.

ولعل عائشة وهى أصغر الزوجات وأحبهن إليه نظرت إلى هذه الزوجة الجديدة نظرة بعيدة، فما كانت تطيق أن تدخل بيت الرسول من تفوقها قدراً وعلماً وتتقدمها نسباً وفضلا.

على أن رملة كانت مشغولة البال بما بين زوجها وأبيها من عداوة وجفوة وبخاصة بعد أن علمت أن قريشا فى مكة كادوا ينقضون عهد الحديبية ونسوا أنهم هادنوا محمداً وعرفوا قوة الرسالة التى يحملها فخالفوه على ميثاق، وانصرفوا إلى تجارتهم يستعيدون ما فقدوا وخسروا إبان المعارك.

حتى أن خالد بن الوليد هوت إلى الإسلام نفسه بعد عتو ونفار، لكن أباسفيان ثار وهدد خشية أن يتبعه كثير من أهل مكة.

ورملة من بعيد تتبع أخبار أبيها وهبوب خصومات وفتن بين القبائل أوشكت على الثورة، ورسالة محمد يتقبلها الألوف بعد الألوف، والنصر معقود

لها ، وأبطال قريش يلتفون حولها واحداً بعد واحد، فتنادى ولاة أمرها وكبراؤها لتهدئة النفوس المهتاجة والخصومة القائمة، وأوفدوا أبا سفيان زعيمهم وحكيمهم إلى المدينة قبل أن تستفحل الخطوب فى مكة وتكون سبباً فى اقتحامها وانتصار الرسالة على ذويها ، فلما تلاقوا على الشورى فيما يخشونه على أنفسهم ومستقبلهم سارعوا إلى زعيمهم أبى سفيان بن حرب يريدونه على أن يتولى هذا الأمر بنفسه ويلتمس لهم مخرجا مما وقعوا فيه، ولم يستطع أبو سفيان أن يتأبى ويستهين بالخطر، فلم يجد مناصا من ترك أعوانه وأنداده على نار، ريثما يمضى إلى الرسول الذى خاصموه وشاتموه لأنه أراد أن ينقلهم من الظلمات إلى النور، وكيف يلقاه بعد ظلم وعدوان، لكن الأمر يكاد يفلت منه ومن جماعته إن تمهلوا واستكبروا كدأبهم فى كل ما صنعوا منذ ظهرت الرسالة وانتصر الرسول.

وذكر أبو سفيان أن بنته رملة غدت زوجة لمحمد فلابد أن يلتمس لديها الوسيلة ويسألها أن تكون عونا على مسالمته وتوثيق المهادنة لقومها وذويها ، فمضى إلى المدينة على هذا الأمل، ودخل بيت الرسول ليلقى بنته رملة التى نفرت من طغيانه، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثم عادت منها زوجة لمحمد الذى جبر خاطرها فى غربتها ومحنتها.

لقد بغت رملة هذا اللقاء فتحيرت فى أمرها ، هل تدعوه للجلوس وتنسى أنه عدو لزوجها ؟ حتى إذا اقتحم المكان يريد مجلساً على الفراش سحبته قدامه، ووقفت تلقاءه تذكره بأنه على غير دينها ، فما ينبغى أن يجلس على فراش الرسول.

وبهت أبو سفيان، وما تمالك أن قال لها:

- هل أصابك شر بعدى يارملة!

وخرج من عندها مقهوراً يتكتم فيما أصابه من بنته، إذ كان يرجو أن تلقاه بغير ما لقى منها بعد فراق وعصيان، فمضى على هوان وخذلان إلى

الرسول يلتمس رضاه ويكلمه فى عهد الحديبية وأمل قريش فى تمديد المدة، فلم يرد عليه بما أراد، لكنه لم يقنط من أخذ الجواب، فراح إلى أبى بكر الصديق صديق عدوه فتأبى عليه ولم يجبه إلى شئ، ولم يجد بداً من زيارة عمر بن الخطاب الذى ذكره بعداوته للرسول وما كاد للرسالة فكيف يأتيه مستشفعاً وهو الذى نقض العهد وحرض جماعته على الغدر والعدوان.

ولما وجد أبو سفيان عمر بن الخطاب أدنى العدو تولى عنه مهزوماً، وسارع إلى بيت على بن أبى طالب وزوجته الزهراء يرجو منهما تشفعاً إلى الرسول فيه، ولعلهما ينقذانه مما يعانيه، لم يخرج من لدنهما إلا برأى أعجبه من على الذى قال له:

- والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك شيئاً، لكنك سيد فى قومك، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، وما أظن هذا مغنياً، لكنى لا أجد لك غيره.

فانطلق أبو سفيان إلى المسجد وفيه هتف بالناس أنه أجار بينهم. وعاد إلى راحلته فركبها على غيظ وأسف، وانفلت إلى مكة يحمل لجماعته ما لقى بالمدينة، وكيف أجار بين الناس كما نصحه على لعل محمداً يجيز جواره، لكنه لم يرد بشئ، فهال القوم ما سمعوا وخافوا أن يكون هذا خدعة لهم حتى رجعوا إلى الشورى بينهم فيما جد معهم.

وعلمت رملة ما كان من أبيها وما حمل لجماعته من أخبار لا ترضيهم، وكانت ترى بين ضراتها الوشوشات مما أصاب أباها من خزى وخذلان، فتمنت فى قلبها أن ينصر الله الرسول ويهدى أهلها إلى الحق والنور فما نفعهم غلوهم فى الضلال والكبرياء وانحرافهم عن الخير والسلام.

على أنها فى سرها كانت ترجو المصالحة وحقن الدماء فقد احتدم بين الفريقين العداء وقريش تبذل عنفها لحصر المؤمنين فى مآزق وسد الطريق على

الدعوة فإن محمداً لم يحمل رسالته لمكة وحدها ولا للمدينة فحسب وإنما كان يشق الطريق لينطلق إلى العالم كله ويعيد للإنسانية كرامتها ويملأ الأرض عدلا ونوراً.

وإن رملة على مثل النار تتبع أخبار الفريقين حتى دخل جيش محمد بلده الأول وبلد أعدائه وفيهم أبو سفيان، فازداد هم رملة حتى علمت بانتصار زوجها وانكسار أبيها وجماعته ممن ناضلوه وعذبوه وحاصروا المؤمنين وشردوهم، فحياتهم بعد فتح مكة مهددة وقلوبهم واجفة، وزعيمهم أبو سفيان مؤمن بعفو محمد وإن لم يؤمن برسالته، وهو يعرف أن الرسول حليم كريم فلابد أن يشملهم برحمته، فلما سألهم ما ترون أنى فاعل بكم؟

وكان هتافهم بالأمان والعفو يملأ الفضاء حين سمعوا محمداً يقول لهم:

- اذهبوا فأنتم الطلقاء!

فاغتبطت رملة بما ترامى إليها من أنباء الفتح والعفو عند المقدرة، واستطاعت أن تظهر بين ضراتها رافعة الرأس موفورة الكرامة، وقد ازدادت فرحتها بقبول الرسول لقاء أبيها والتماس العباس منه أن يكرم أبا سفيان بما يرد له عزته فى إسلامه ونفوذه فى قومه فيبقى بينهم زعيما مسموع الكلمة مرموق الطموح.

وطابت الحياة لرملة بعد فتح مكة وإيمان أبيها بمن آمنت به وفضلته على الأهل والبلد. وتطلعت إلى ضرتها عائشة التى كانت تعتز بأبيها وسبقه إلى الإسلام فاقتربت منها، وكانت تؤثر البعاد، لئلا تزيد فى غيظها.

وفتحت لها عائشة صدرها فحنت عليها وعطفت، وألف بين قلبيهما ود جديد لا يشوبه ما يكون بين الضرات، فإن رملة تقدمت سنها وعائشة فى زهو

الشباب، ولما جاء أجلها أحاطتها زوجات الرسول بالأسى والرحمة، وكانت حفصة وعائشة تقرءان على روحها سوراً من القرآن، وتذكران ما كابدت رملة فى حياتها من عناء وبلاء، حتى كان مرقدها الأخير بجوار المؤمنات السابقات، وفى بلد زوجها الرسول عليه السلام.

مارية القبطية

المهدية المصرية

«استوصوا بالقبط خيرا فإن لكم فيهم صهرا وذمة»

من حديث النبى عليه الصلاة والسلام وهو يذكر مارية

هذا مجلس الرسول حافل بصحبه وأحبابه، يتحاورون ويتشاورون فى دعوة الملوك للإسلام، فإن انتصار الرسالة فى بلاد العرب وحاجة هذه البلاد إلى الانطلاق من نفوذ الفرس والروم فى الحياة التجارية جعلا محمداً يفكر دوماً بدعوة الملوك والكبراء إلى الإيمان بالله كما دعا الشعوب والقبائل فآمنت به وبرسالته التى أضاءت القلوب وأغاثت الملهوف ورفعت راية العدل والحرية بين الناس.

لقد جلس محمد بين أعوانه يتداولون الرأى فى نقل الدعوة إلى أرض غير أرضهم وإلى دول تتنازع النفوذ والسلطان، وكأنها فى معسكرين على مصطلح أيامنا، يتجاذبان الحكم والسيطرة فيما جاور كلا منهما، وكانت بلاد العرب تتطلع إليهما بحذر ومصانعة لتأمن شرهما فى الرسالة والتجارة.

أراد الرسول وجماعة من المفكرين الأخيار أن يفتحوا للدعوة باباً جديداً عريضاً تخرج منه إلى الملوك والأمراء لعل الإيمان يدخل قلوبهم ويجد المسلمون لديهم عوناً على ما كانوا بسبيله، وما كانت الرسالة لتبقى محصورة فى الصحراء بعد أن وقفت فى وجوه قريش وأوثانهم، هدمتها وبنت لهم دين الحق الذى أبدلهم بجهلهم وبغيهم علما وعدلا، ومشت مواكبه فى العرب تدعوهم للهدى والتعاون على البر والتقوى، وتفتح مغاليق النفوس وأسوار المدن بإيمان يزلزل الجبال.

وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة، والدعوة عمت آفاق الصحراء واستجاب لها أبطال العرب الصناديد الذين أيدوا الرسالة والرسول بإخلاصهم ومالهم، وفدوها بأرواحهم لنشر الفكرة التى حملها الإسلام فى تنظيم المجتمع وخوض المعارك مع الضلالة والجهالة التى شقيت بها الإنسانية وانحرفت بها عن الخير والأمان والهداية.

ولما أعدت الرسائل للملوك والأمراء كان محمد وصحبه يستمعون لما جاء فيها، وقد صاغ كلماتها الكتاب الذين اختارهم من المفكرين والعلماء ومن

حولهم هؤلاء الذين دعوهم لحمل الرسائل من المتمرسين بالحياة، المتزودين باللباقة والمعرفة وأخبار الملوك عدا إتقانهم للحديث والخطابة.

وكان من نصيب حاطب بن بلتعة أن يتلقى من يد الرسول كتابه إلى المقوقس معبراً عما يريد.

«من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم مصر، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم قومك القبط، ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.»

حمل الكلمة حاطب بن بلتعة إلى صاحب الإسكندرية وزعيم القبط فى مصر كما حمل مثلها سفراء محمد إلى غيره من الرؤساء والأمراء، على أن هؤلاء الموفدين يردون خواطرنا اليوم وقد أحطنا علما بسفراء العصر لدى الملوك والحكام إلى هذه الظاهرات الجديدة فى السياسة فنرى أن محمداً كان سباقا إلى أساليب الدبلوماسية فى نشر الدعوة الإسلامية.

وبلغ حاطب الإسكندرية كما يبلغها اليوم سفراء العرب أو الغرب، فخف أعوان المقوقس ورجاله إلى لقاء السفير الأول، حاطب بن بلتعة، فأنزلوه منزلا مكرما، وغدا من غده على عظيم مصر المقوقس، فاحتفى به وهش للقائه، ولما قرئت رسالة النبى ودعوته انبسط وجهه وأشرقت أساريره فلم تأخذه الراجفة التى أخذت كسرى حين مزق الرسالة غيظا واستكبارا، ولا طوفت بالمقوقس خيلاء هرقل ملك الروم حين تلقى دعوة الرسول للهدى ودين الحق لكن المقوقس زعيم مصر أنصت لرسالة النبى واحتفل بحاملها وأجاب عليها مجاملا مداورا فى لباقة وكياسة:

«إلى محمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك، قرأت كتابك وما تدعو إليه وكنت علمت أن نبيا قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام

فمنها كان يظهر الأنبياء لكنه خرج من أرض العرب. وقد أكرمت رسولك حاطبا وبعثت إليك بهدية وبفتاتين لهما فى القبط قدر ومكانة. ومعهما أخوهما الشيخ مابور...»

وجعل المقوقس رسالة النبى فى علبة ثمينة مرصعة بالجوهر، وقد أظهر التكرمة والحفاوة لسفير محمد وذكر له أن القبط لا يطاوعونه إن استجاب لدعوة الرسول وباغتهم بهذا الدين الجديد، فهو يخشى أن يفارقه ملكه، ويكون له شأن مع قومه، ولكنه يرى أن محمداً سيظهر على البلاد ويفتحها وينشر دينه فى الآفاق...

وكأن المقوقس كان يرى بلحظ الغيب مواكب الجيش العربى حين خفقت سنابك خيله فى الفسطاط وعلى ضفاف النيل ثم حمحمت وترنحت فى شواطئ الإسكندرية حيث كان قصر المقوقس يطل على بحر الروم، وقد تحقق حلم المقوقس، فإن عمرو بن العاص لقى منه عونا على الروم حين جاء فاتحا لمصر.

كذلك عاد حاطب بن بلتعة إلى الحجاز حاملا جواب المقوقس وهداياه إلى رسول الله.

وتشوف الناس فى المدينة إلى هذا الركب العائد وفيه لؤلؤتان قبطيتان من بحر الإسكندرية، وبلغ السفير العربى حديث المقوقس فأنصت له الرسول وأدرك موقف عظيم القبط فرأى ألاّ يعجل عليه وعلى قومه، فلكل شئ أوان، تجرى به الأقدار، وقد تقبل هدية المقوقس، وكان خير ما فيها مارية القبطية المصرية وشقيقتها.

وكان من حق هذه الهدية أن تكون مارية وأختها سيرين ملكا للرسول، ولكنه آثر الأولى لنفسه، فتسراها ووهب شقيقتها التى سميت سعدية لشاعره حسان بن ثابت فأكرم مثواها وأنجب منها ولده عبدالرحمن الشاعر ابن الشاعر.

وأنزل الرسول مارية وأخاها فى منزل بالعالية من ضواحى المدينة تحف به الكروم ويرف عليه النسيم فى العشيات، وضرب عليها الحجاب أسوة بنساء

النبى، فلما ولدت ابنه إبراهيم سماها أم المؤمنين، كما حملت زوجات محمد هذا اللقب العظيم وقد أسبغ عليها مودته وحنانه، وتخير أم سيف مرضعة لوليده على عادة العرب، وجعل فى حوزتها سبعا من الماعز لترضعه من لبنها، وكان الرسول يمر بدارها كل يوم ليرى وليده ويتملى من طلعته وطفولته، وكلما نما إبراهيم وترعرع وازداد شبها بأبيه تعلق به، وأفرغ فى حبه له حنانه الأبوى الذى يضفيه على بنيه وبناته، وقد غيبهم الردى صغاراً وكباراً إلا فاطمة التى بقيت قرة عين لأبيها ونفحة ريا لروحه من أمها خديجة، فلما وهب الرسول على الكبر وليده إبراهيم بعد الستين، انطفأت فى قلبه حسرته على أولاده واطمأنت نفسه برؤية إبراهيم، وكان سروره يفيض كلما ألقى عليه نظره الرحيم ومناغاته الحنون.

كانت مارية المصرية وضيئة الطلعة على سمرة محببة، ذكية القلب طيبة الشمائل، يتوج رأسها شعر أسود متماوج متجعد، وقد صفت طويتها وتقواها، فأعزها الرسول لأدبها ورصانتها، وأكرمها لأمومتها وآلف قلبها وآثرها، ولإيمانها برسالتها دون قومها فثارت غيرة ضراتها، وكانت عائشة على علمها ونبوغها أشد غيرة من مارية، وبخاصة حين صارت هذه الغريبة القبطية أما، ولقد حمل الرسول إبراهيم بين يديه وأقبل على عائشة ذات يوم وهو يناغى وليده وينشق خده، ثم رفعه إلى وجه عائشة وكانت بجنبه فقال لها:

– انظرى ياعائشة... أليس إبراهيم شبيها بى؟

فأجابته عائشة بكلام صامت وإشارة تنم على ما فى قلبها نحو مارية وابنها، لقد أشاحت بوجهها عنه ولم تلق عليه نظرة.

ولم تطل فرحة الرسول بولده أكثر من شهور لم تتجاوز العام ونصف العام، فإن إبراهيم آذاه السقام، فنقل من عند مرضعته أم سيف إلى نخيل بجوار العالية فى مشارف المدينة حيث كانت تقيم أمه بين الحدائق التى أهداها مخيريق إلى الرسول بعد جلاء بنى النضير عنها، وقامت مارية وأختها سيرين بتمريض إبراهيم، وكان الرسول جازعا عليه فزعا، فلما احتضر أخذ

عبدالرحمن ابن عوف بيد الرسول إلى حيث يعود ولده فرآه يجود بنفسه فى حجر أمه، ولم يتمالك من الحزن والإشفاق فأخذه ووضعه فى حضنه وقلبه واجف وعيناه دامعتان، ولما أسلم الطفل روحه إلى بارئها قال محمد:

- إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً.

وصاحت أمه وخالته، فتركهما الرسول على رسلهما، وبكى معهما قائلا:

- يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك أشد من هذا.

ثم قال:

- تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بك ياإبراهيم لمحزونون.

واشتد حزن الرسول فرده أصحابه ونهنهوا من حدة أساه وذكروه بما نهى عنه فقال:

- ما عن الحزن نهيت، وإنما عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون من أسفى ودمعى هو أثر ما فى القلب من حب ورحمة وإن من لا يرحم لا يرحم...

وزاد عطفه على مارية فواساها قائلا:

- إن لإبراهيم مرضعا فى الجنة...

ولما حملوه ليواروه فى ثراه، مشى النبى صامتا جلداً، فسمع الأطياف والهمسات تناجيه بالعزاء وتثبته فى الصبر على بلواه، ولما دفنوه بكى ونضح القبر بالماء ووضع عليه الزهر وحط علامة بيده ثم قال:

- إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحى، وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه...

وقد اتفق أن الشمس كسفت يوم موت إبراهيم، فحسب الناس أن معجزة حدثت. وقالوا إنها انكسفت حزنا لوفاة إبراهيم ولد محمد..

وسمع النبى لغطهم وتناهى إليه حديثهم فخرج إليهم وخطب على المنبر فقال:

- أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فانزعوا إلى الله بالصلاة..

كأن ذلك الحزن العميق الذى دفنه الرسول فى نفسه الكريمة قد بللت غرسه الدموع، وكان محمد يسكبها فى صمت وسكون إذعانا لحكم القضاء فطلع من ذلك الحزن الصابر ثمر فاض بالخير والإحسان، ووزع الرسول الصدقات على المعوزين والمساكين عن روح فقيده، فأحس برد العزاء والإيمان.

وهون الرسول على مارية الثكلى حزنها ووجومها فأغدق عليها بره ورضاه، وشمل أختها سيرين برعايته، ووصى بالقبط خيراً من أجل مارية فقال لقومه:

- استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة...

وتمنى لو عاش إبراهيم لوضع الجزية عن كل قبطى.

فقد كان عمره قصيراً كالأزاهير، ملأ بيت الرسول وحياته من شذاه. وما طالت أيام محمد بعد ولده إبراهيم فقد فارق دنياه فى العاشرة من الهجرة تاركا فى قلب مارية حزنا دفينا وطيفا مقيما، إذ كان لها الزوج والحبيب والرسول الذى آواها وعزاها فى غربتها وكرمها بزواجه منها فاعتزلت الناس بعد موته وكان لا يطيب لها إلا رؤية شقيقتها سيرين وزيارة القبرين اللذين ضما حبيبيها محمداً وإبراهيم، لكنها عاشت بعدهما أعواماً طوتها فى التعبد والذكرى.

وقد أجرى عليها الصحابة ما يقوم بأودها، ويحفظ عليها كرامتها ومقامها فآثروها بعنايتهم وفاء لذكرى الرسول وقياما بحقها عليهم وواجب المحبة الولاء.

وقد توفيت مارية فى عهد عمر بن الخطاب فصلى عليها مع صحب الرسول وأمر بدفنها حيث دفن إبراهيم.

وعرف القبط فى المسلمين مبشرين بالخير والمعروف محافظين على الحق وحماية المعاهدين والذين لم يستجيبوا للدين فآمنوهم من خشية على أنفسهم وأموالهم، وقد أثمرت فى القبط سماحة الرسول ومروءة المؤمنين، وتوارثوا الولاء والوفاء لرجالهم وعمالهم، فلم يجد العرب حين فتحوا مصر عوناً أفضل مما صنع القبط ولا علما أعمق من علمهم.

وإن التاريخ ليروى العجب مما لقى عمرو بن العاص من تكرمة كبرائهم وجراياتهم على المسلمين، وقد امتلأت صحائف العرب بأنباء القبط الذين أكرموا المأمون حين زار مصر؛ فكان كلما انحدر إلى الأقاليم نصب له أهلوها مصاطب وزينة، وقد اتفق أن المأمون اجتاز إقليما لم ينزل به كغيره من أقاليم مصر فلحقت به عجوز من القبط يقال لها مارية وكم فى القبط من ماريات فضليات فاستوقفت الخليفة العربى وعاتبته قائلة:

- من حقنا عليك يا أمير المؤمنين أن تحل فينا مكرما كما حللت عند سوانا، وإلا لحقتنا معرة لا يمحوها الزمان.

وترجموا للمأمون قول العجوز، فهش لها ونزل بأرضها، ولم يكد يجلس فى ساحتها، حتى ملأتها طعاماً وشراباً ومالا، ثم جاءته بصرة كبيرة من الدنانير ليوزعها على جنده وكان معه عشرون ألفا.

فقال المأمون للترجمان:

- قل للقبطية هل وجدت كنزا ؟

فلما بلغها الترجمان قول الخليفة ضحكت وتناولت بيدها الراجفة حفنة من التراب وقالت:

- هذا تراب مصر الخير المبارك ونحن قوم زراع... على أن رخاء عهدك يا أمير المؤمنين جعل هذا التراب ذهباً.

كذلك اتصل حبل المودة والمعرفة بين القبط والعرب منذ عرف محمد مارية التى كانت سبب هذه القربى والوئام، ومن قبل بشر بنبوة محمد كهان الإسكندرية وحكماؤها الذين قرءوا فى كتبهم أن نبياً عربياً سيظهر وتنتشر رسالته فى الآفاق.

ميمونة بنت الحارث

(الهلالية)

«إن ميمونة من أتقى نساء النبي ﷺ
وأوصلهن للرحم، وأكثرهن عبادة وحمدا»
من وصف عائشة لميمونة الهلالية

كان لهجرة الأوائل ممن آمنوا بمحمد وفروا بدينهم إلى الحبشة أثر عميق فى نفوس الطغاة من قريش، فقد أخرجتهم هذه الهجرة عن أطوارهم وهيجت أضغانهم. لكن الإيمان كان أقوى وكأنه الشعاع الذى سطع فى الظلمات، فأضاء دنيا العرب وامتد نوره إلى الغرب.

ولم تقتصر تلك الهجرة السابقة على الرجال فحسب وهم قلة من النخبة وإنما كانت فيها طليعة المؤمنات، فمن الراجحات الصالحات من تقدمت أهلها بالإسلام وفضلت أن تفر بنفسها من أذاهم أو رافقت زوجها وأخاها، واقتدت بأختها فى الهجرة والجهاد.

من هؤلاء السابقات كانت أخوات أربع جمع الإيمان بين قلوبهن كما جمع اللحم والدم، وعرفن بالنخوة والإخلاص للدعوة حتى سماهن الرسول الشقيقات المؤمنات.

ولقد جمع أبوهن الحارث الهلالى وأمهن هند بنت عوف خير الأصهار عليا وجعفر ابنى أبى طالب والعباس وحمزة ابنى عبدالمطلب وأبا بكر الصديق وكان خالد بن الوليد من حفدتهما الذين بذلوا البطولة والفداء للفتح والانطلاق.

من هؤلاء الأخوات أم الفضل زوجة العباس وأولى المسلمات بعد خديجة ومن المهاجرات إلى الحبشة، ولقد استطاعت أن ترد الأذى عن أبى رافع تابع زوجها حين مد أبو لهب يده الآثمة إلى هذا الإنسان الضعيف وألقاه فى الأرض تشفياً من حقده عليه، فأمسكت أم الفضل بعمود وخبطت رأس أبى لهب وتركته مشجوجاً قائلة له:

– ويحك، لقد استضعفته بغياب صاحبه!

وأم الفضل هذه آوت أختها التى وهبت نفسها للنبى فكانت وزوجها الوسيلة إليه بتزويجها، ولعل ميمونة آخر نساء محمد، فقد استجاب لها وهى أرملة دون الثلاثين وحنا عليها فى بيته وبين زوجاته، وكانت ذكية الفؤاد عميقة الإيمان متفانية فى خدمة الرسالة، فأكرمها الرسول وبرها وكان اسمها برة، لكن محمداً سماها ميمونة تيمنا بالعودة إلى مكة عام زواجه منها، وهو عام اللقاء بعد الفراق، لقد غاب عنها وصحبه سبع سنوات منذ عهد الحديبية فكان لعودتهم إليها على شوق وتحنان هزة فى قلوب المسلمين الذين دخلوها آمنين ليقوموا بفريضة العمرة ويتنادوا إلى التعاون على البر والتقوى، وقريش تشهد من بعيد نساء ورجالا آمنوا بالله ورسوله وولوا وجوههم شطر البيت الحرام مبتهلين مكبرين.

وما كادت الأيام الثلاثة تمضى بسلام ووئام، حتى نامت الفتنة القديمة وفترت الخصومة المحتدمة، فود الرسول لو يستجيب لدعوته أهل مكة، فيتحدث إليهم من جديد، ويعد لهم طعاماً يحبونه، لكن بعض الخبثاء أنذروه بالانصراف فقال لهم:

- اتركونى حتى أتزوج برة وأصحبها من مكة..

فرفضوا طلبه خشية أن تفتح مكة صدرها لدعوته، ووفى الرسول بعهده، فأوصى أبا رافع بأن يلحق به ومعه برة..

وانضمت برة الميمونة أم المؤمنين إلى زوجات النبى، معتزة بهذا الزواج الذى أكرمها ونعمها، وقد شهدت عائشة بأن ميمونة كانت من أتقى نساء النبى وأوصلهن للرحم، تعطف على أهلها وتأخذ بيد الضعيف وتعين المسكين وتتعبد الله حامدة له نعمته عليها.

وعمرت ميمونة بعد الرسول خمسين عاماً حتى جاءها الأجل فأوصت بأن تدفن حيث تزوجها الرسول فى «سرف» من ضواحى مكة تاركة ذكراها الطيبة وما قدمت للرسالة وللإنسانية من خير ومعروف.

بنات
الرسول

زينب بنت محمد

«تحت جنح الظلام رحلت زينب من مكة إلى المدينة، امتثالا للدين الذى لا يبيح بقاءها مع زوج لم يؤمن بالله، ويأسى الرسول على بنته فيدعو الله أن يهدى أبا العاص إلى الحق، وأن يشرح صدره للإسلام»

على مستشرف من البيت العتيق فى أعطاف مكة، تقوم دار أبى العاص ابن الربيع زوج زينب كبرى بنات محمد، وأبو العاص ألمعى أريحى من أبطال قريش، نماه إلى خديجة بنت خويلد نسب قريب فهو ابن أختها هالة، وقد عرف فى قومه بسداد الرأى والحفاظ، وابتلوه بالأمانة والرزانة فوجدوه حافظاً لمالهم ومكانتهم فى تجارته ومعاملته، حفياً بأهله وعشيرته وفياً لهم فى القرب والبعد.

كان أبو العاص يسعى إلى بيته فى أماسيه منصرفاً من عمله أو قافلا من سفره فلا يكاد يصدق أن أول وجه يلقاه كان وجه خالته خديجة وبين يديها بنتها زينب فإذا طلعت عليه تهلل وجهه وأنس بحفاوة الخالة الفاضلة وبشاشة الصغيرة التى كان يدنو إليها بقلب متفتح وأمل كبير.

ولقد كان هذا اللقاء بين يوم آخر تسرية لابن الربيع عن تعب النهار وشغل البال، فإن متاعبه فى السفر والتجارة وبخاصة فى موسم الحج كان ينساها كلما زار بيت خالته خديجة التى كانت تختصه بالمحبة والتكريم وتطمعه فى تحقيق أمله بأن تكون زينب من نصيبه، حتى استجاب محمد لهذه الرغبة واستطاع أهل خديجة أن يعتزوا بهذا الزواج الذى جمع بين فتاهم القرشى الأصيل وبين كبرى بنات محمد. وكانت زينب تتفتح عن صباها الجميل الذى كان يزينه الذكاء والحياء فأدخلت السعادة على قلب أبى العاص ولم يكن ينقصها إلا غيبة الزوج فى تجارة قريبة أو بعيدة حتى اصطفى الله محمداً لرسالته وكان دينه الحنيف أعز من الأسرة وأبقى من القربى ورسالته للناس كافة، لا لبيت من البيوت أو لقبيلة من القبائل، فويح زينب وويح أبى العاص معها! إنها لفى حيرة من أمرها وهو فى حرج من أمره.

هذا محمد رسول الله، آمنت به خديجة وآمن به صاحبه أبو بكر وأخذ دينه ينتشر بين أهله وأصدق صحبه، وكيف تحجم زينب عن الإسلام ولا تؤمن

بما جاء به محمد من عند الله، إنها كبرى بناته ولها أسوة فى أمها وفى المؤمنات السابقات، ولكن أبا العاص خلفها مريد السحنة متجهم الوجه، وقد زوى ما بين حاجبيه واستبد بجاهليته، لا عدواناً على الرسول، وإنما إبقاء على عزته القرشية، ثم لا يكاد يمضى فى تمرده واستبداده، حتى تلوح له زينب زوجته وبنت خالته راجعة من بيت أبيها، يضئ وجهها بشراً وإيماناً، فلا تقع عينها عليه فى لقائه حتى يرتد تلألؤ وجهها حناناً وإشفاقا، فتنسى ما كانت عليه منذ قليل من فرحة بالدين الجديد، وتجلة لأبيها الرسول الذى أطاعته فى إسلامها، فقد شرح الله صدرها لهذا الدين الحنيف فتسعى بين يدى زوجها أبى العاص تفديه وتكاتمه ما كان من أمرها وأمر أبيها، وتندفع إليه صافية النفس مترفقة به كعهده بها قبل إسلامها، لم يبدلها نحوه هذا الدين، وما صدته عنها عزته القرشية، ولكن هذه المودة وهذا الوفاق لا يمكن أن يدوما على تلك الحال فالإسلام يمضى قدماً فى انتشاره، وقريش وأبو العاص يمضيان قدما فى الكفر والعنت والوقوف فى وجه الرسالة خشية أن تشيع فى البيوت والأحياء، وما أحسب أبا العاص وقد أخذ بما أخذ به قومه من عتو ونخوة وابتغاء الوسيلة إلى تلهية محمد بما يزهده بالدعوة ويشغله عنها يرضى بما ارتأى أبو جهل ويقتدى بما فعل عتبة وعتيبة اللذان سرحا بنتى الرسول رقية وأم كلثوم كرهاً لأبيهما وطوعا لأبى لهب الذى قال لولديه:

– رأسى من رأسيكما حرام إن لم تسرحا بنتى محمد.

وأطاعا على مضض، ففارقا زوجيهما كارهين.

ولقد جاء أبو جهل ذات عشية يدلف نحو أبى العاص كما تسللت الأفعى واندست بحواء، فوسوس إليه أن يطلق زينب، أو يتزوج غيرها واحدة من هؤلاء اللاتى سماهن له وهن غرر الغوانى من قريش، وما ينتهى أبو جهل من إغوائه وفتنته تحت جنح الليل حتى ينهض أبو العاص من لدنه متثاقلا متململا، وقد تجهم وجهه لأبى جهل، وفاض قلبه حنينا لزينب:

أكان أبو جهل يحسب أن أبا العاص مثل عتبة وعتيبة إذ وسوس لهما وحملهما بمكره على طلاق بنتى محمد؟ هيهات هيهات.. فقد خاب فأل أبى جهل وتبت يدا أبى لهب!

ها هو ذا أبو العاص يعود إلى بيته أكثر بشاشة وأصفى قلبا، وتتلقاه زينب بأنسها ومودتها، ويتحاشى أن يؤذى شعورها لإيمانها واقتدائها بمن أسلم من المؤمنين والمؤمنات فلا يصدها عن الذهاب لدار أبيها، ولكنه أخذ يضيق بنفسه، وبقيت حياته معها فترة من الزمان فاترة سادرة، ولكن ليس فيها تنغيص ولا فيها تسريح.

ويأبى الله إلا أن ينشر دينه فى أرجاء الجزيرة، فيأمر رسوله بالهجرة، ويأمر المؤمنين أن يشتروا أنفسهم فى سبيل الدين، ويرتحل الرسول وصاحبه، وتستقبله المدينة بأنصارها وأبرارها مؤمنة رافدة، وخيرة مسندة، وقد مكن الله لرسوله فى يثرب من قلوب أهلها الأوس والخزرج، ففدوه بمالهم وأرواحهم، وحموه مما يحمون منه أولادهم ونساءهم، فياللعباد كيف وقع بين محمد وبين بنته! ويا للإسلام كيف يشاء منذ اليوم أن يفرق بين المرء وزوجه. إن هذا الفراق ليلج فى قلب زينب ويأخذ بشغافها، وتحن نفسها الخالصة إلى أبيها، وترمى صاحبة هذه النفس المؤمنة التقية نظراتها وراء الأفق عبر الرمال الرمضاء من أجواز مكة نحو آطام المدينة، لكنها تتخيله فى أصابيحه وأماسيه قلق البال، مشفق الجوانح، يذكرها كما تذكره، ويتوق إليها كما تتوق إليه، فتتململ زينب وتضيق بزوجها أبى العاص متمنية لو أنه أسلم طائعا مختارا، فجلب لقلبها الأمن والسرور، ولقلب أبيها الراحة والرضى، ثم ترتد نحو ولديها على وأمامة فتبقى على أبى العاص من أجلهما، ولكنه عتا عن أمر أبيها ولم يستجب لدعوته، واتصل سببه بسبب قومه المتأبين المكابرين، فأخذ قلبها يحن إلى أبيها، وقد آثرت الرحيل عن مكة مهما يكن المصير.

ويهب أبو العاص فى هبة قريش لمناوأة محمد وحرب الذين سندوه وأيدوه، فتؤلب جمعها وتعد عدتها، لهذه الحرب الطاغية. لا يصد أبا العاص حبه لزينب عن مناوأة أبيها والمؤمنين، مدفوعا بحميته الجاهلية وعزته القرشية فيمضى فى غزوة «بدر» شاك السلاح مع صحبه المقاتلين، ويلتقى الجمعان قريش العصية العاتية والمؤمنون المجاهدون، فيلتحمان فى معركة حمراء هى التى قررت مصير الإسلام، ولما انجلى غبار الموقعة عن هزيمة قريش وظفر الرسول وصحبه، كان فى الأسرى أبو العاص، وما ندرى كيف باتت زينب فى مكة وقد فصل أبو العاص فيمن فصل من المناوئين، فهل بكت زينب خوفا عليه وإشفاقا على أبيها وأنصاره، وهل فاض دمعها كما فاض دمع زوجة عبدالملك بن مروان من بعد زينب بأجيال يوم هب عبدالملك إلى الغزو والقتال؟.

لا ريب أنها باتت قلقة مؤرقة، يدعوها الإسلام لأن تضيق بأبى العاص ولا تداريه، ويدعوها حب الزوج لأن ترجو له النجاة مما قد يلم به من الأذى، وما أحسبها كانت ترجو له ظفراً على أبيها الرسول.

وحاق بزينب قلق وضيق، فما راعها وهى فى لهيب من هواجسها الملحة وذلك الرجاء العميق، إلا نذير أشرف على مكة رافعا صوته بالنداء والبكاء، معلناً خيبة قريش وانكسارها فى وقعة «بدر» ومعدداً إلى ذلك أسماء القتلى والجرحى، وأسماء الأسرى، فيالهفة زينب وهى فى هذا الجمع الواجف الراجف، حين استقر فى سمعها أن أبا لعاص فى الأسرى؟..

لم تكن مصيبتها فادحة، فقد باتت تحمد الله لأن زوجها غدا أسيراً، ولم يكن قتيلا، ولكنها أيقنت أن الله سيحق الحق ويزهق الباطل، وأن رسوله سيأخذ أبا العاص بجريرته كما يؤاخذ الكافرين بعنتهم وأذاهم.

وقام داعى مكة يدعو إلى فداء الأسرى، فركض أهلوهم بما عندهم من مال ومتاع، وتلفتت زينب فلم تجد فى حوزتها من المال ما يكفى لفدية أبى العاص، فأخذت قلادة كانت عندها أثيرة غالية، قلدتها بها أمها خديجة، وكانت القلادة

حبيبة إلى أبيها عزيزة لديه، فهى تحمل خيالا من عنق خديجة حين كانت تزدان بها، وتحمل ذكرى بعيدة لا تقدر بثمن، ولكن ماذا تفعل زينب وهى تريد أن تفتدى زوجها؟ فكانت تلك القلادة فيما حمل من المال فى سبيل الفداء.

وطرحت الفدية أمام الرسول وصحبه، فافتدى بها أهلوها أسراهم، وأمسك بالقلادة أحد الصحابة يقلبها بكفه، فوقع نظر الرسول عليها وعرفها، وأدرك بقلبه الكبير ولحظه النافذ كل ما أحاط بهذا العقد من غابر وحاضر.

وهتف أحد أصحابه: هذا عقد زينب بنت رسول الله، تفادى به زوجها أبا العاص!

فياموقفا لمحمد، ما كان أروعه وما أشد ما كان فيه من ألم واستحياء؟ فقد ذكر حنان زينب ووفاءها وإهداء أمها إياها هذه القلادة، ففاض شعوره واهتاجت خواطره، وأكبر بر الزوجة واستغناءها عن أعز شئ لديها فداء لزوجها ووفاء له، فعز على الرسول أن تبذل القلادة بذل المال وقد قبل زهيده فى فدية الأسرى، وسأل النبى صحبه عن رأيهم فى شأن هذه الفدية. وحين أدركوا موضعها من نفسه ومن نفس بنته زينب، تجاوزوا عنها وردوها مع الأسير، فانطلق أبو العاص نحو مكة حاملا فى عنقه منتين: واحدة هى عتقه، وثانية هى ثمن هذا العتاق.

واستقبلت زينب أبا العاص وهو شارد النفس، مبلبل الخاطر فتلقته بالابتسام والمودة، وردت عليه نفسه الضائعة. وما كادت تستقر حياة زينب بعد عودته وتطمئن قليلا حتى باغتها القرآن بآيات بينات تحرم أن تكون زوجا لمشرك، فبانت زينب من زوجها أبى العاص وهمت بالنزوح من عنده سراً. ولكن لهفتها على أبى العاص وبرها به وكلامها مع أهل القافلة كان يجذب نحوها الظنون بالسفر، ويشيع بين قريش أهبتها للرحيل، وإنها لتعد العدة، وتخفف من الأحمال فى هدأة من الليل فتفاجئها هند بنت عتبة وتسألها:

يابنت محمد بلغنى عزمك على الرحيل وهجر أبى العاص.

فتنكر زينب ويتلجلج لسانها، فتقول هند:

- لا تكذبينى يازينب، فإن ما بين الرجال لا يتعداهم إلى النساء وإن أحرجتك معونة من مال أو جهد فإن أولى الناس بإسعادك بنت عمك هند..

فسرت زينب من كلامها، وطاب خاطرها، وشكت إليها بثها، وقد عجبت كيف انكشفت عزيمتها بالسفر، فلم تعبأ بلغو قريش ولا أبهت لملامتهم، بل مضت إلى غايتها.

وإن ركبها ليمضى فى عرض البيداء وتطوى تحته الأرض تحمل امرأة معذبة النفس مشبوبة الفكر، القلب ما يزال عند أبى العاص فى مكة، والعقل يسوق المرأة القانتة المغلوبة على أمرها، فقد أطاعت أباها ونبيها واتبعت دينه، ففرق هذا الدين بينها وبين زوجها.

من الطارق على محمد تحت جنح الظلام؟ من هذا المتلفع بالسواد يلتمس بيت الرسول وينتظر لقياه؟ إنه لزينب كبرى بناته، ترتمى على يدى أبيها فتغمرهما بالدمع، ويغمرها بالرحمة والحنان، فتحدثه برحيلها فراراً بإيمانها، وامتثالا للدين الذى لا يبيح بقاءها مع زوج لم يؤمن بالله ولم يشاركها فيما يستمتع به المؤمنون من نعمة الإسلام، فيحن قلب الرسول ويأسى على بنته فيدعو الله أن يهدى أبا العاص إلى الحق وأن يشرح صدره للإسلام.

وعطف الرسول على بنته، وشق عليه أن تفارق زوجها مكرهة، فإن هذا الفراق لينغص أيامها ويكدر عيشها، فواساها بحنانه ووصاها بالصبر والتقوى، وملأ قلبها أملا بأن أبا العاص لابد أن يذعن للحق ويفئ إلى أمر الله.

وتصبح مكة خالية من زينب، عالمة برحيلها؛ فتهرع قريش إلى أبى العاص مستفهمة متلاومة، وتخوض ألسنة الشائرين فى الأقاويل، فتهجوهم هند بنت عتبة، وتعير الذين عرضوا لزينب فى هجرتها قائلة إنهم فى السلم أعيار وفى الحرب أمثال النساء العوارك.

كان أبو العاص مثل زينب، قلبه فى المدينة وعقله فى مكة يعذبه ويؤنبه، ولعله انصرف إلى التجارة والسفر تلهياً عن فراق زينب وكبتا لوجده وكربه، ومنجاة من ظلامة قريش، وماله لا يبتئس ويضطرب وقد فارقته زينب، وتخلت عنه لتأبيه وصدوفه عن الأخذ بما أخذت به إيماناً ويقينا؟.

وامتلأت نفس أبى العاص موجدة وغيظا، وملك القلق عليه أمره، فراح أصحابه يعطفون عليه، ويستحثونه على الاتجار، فاستجاب لهم ليتلهى، وسعى إلى الشام فى قافلة مثقلة بالأحمال، فيها من مطارف مكة وتمرها، وفيها من الطيب والعطور والحجارة الكريمة شئ كثير.

كانت المطايا تمضى بأبى العاص وصحبه، وقلبه عند زينب يحدثه بحديثها، ويعذبه باللوم والندم، وقد أحس الحنين إليها والإشفاق عليها فتبرم بهذا الدين الجديد الذى فرق بينه وبينها، وهاجت فى نفسه الكبرياء فأبت عليه أن يأخذ بدين زينب حفاظا على عزته القرشية وتماسكا مع قومه. وكانت القافلة تسرى فى عرض الصحراء لا يسمع منها حسيس إلا وقع مناسم الإبل على الرمل، فطاب لأبى العاص أن يتغنى بحب زينب ووفائها. وأن يناجيها بشعر يفيض حنينا إليها وحسرة عليها، فكان ينشد شعره خافتا منغما لا يكاد يسمع معه صوته.

وقد قطع أجراس الإبل لئلا توسوس فى الليل فيسمعها أحد السارين فى الظلمة المدلهمة، وربما كان من قوم الرسول، فيعرض للقافلة ويقبض ما فيها من مال وأحمال، وكأن أبا العاص أحس دبيبا أو سمع ركزاً، فكف عنه تنغيمه وغمغمته، وأرهف سمعه، فإذا فوج مقتحم يفجأ قافلته وخلفه سرية عليها زيد ابن حارثة فيها مائة وسبعون راكبا، تصدوا للقافلة وعدوا عليها فلم يدعوا مالا أو متاعا إلا أتوا عليه. وكان ملك نفر كثير من أهل مكة. دفعوه لأبى العاص لكى يكسبوا من تجارته الرابحة، ونجا أبو العاص بنفسه، وكان يتمنى لو طاوعته نفسه فيكون مع رجال قافلته أسيراً، إذ كيف يرتد إلى مكة مسود

الوجه صفر اليدين، فـفلت من السرية وخطا أسرع خطوات مضطربا مكروبا، نادباً حظ هؤلاء الذين ائتمنوه على مـالهم ليتـجـر به، فكيف يلقـاهم بـالخزى والخيبة؟.

وخطرت بباله زينب فأجهش بالبكاء، وتنازعته خواطر عنيفة به مشتطة عليه، حتى ضاق بنفسه وطالت حيرته، وما لبث أن هاجت فيه عزته ومروءته، فرد نفسه عن هواجسها معللا إياها بلقيا زينب فهى التى تفرج كربه وتهون خطبه..

ولم تكد القافلة المسلوبة تصل إلى الرسول وصحبه حتى كان أبو العاص يمضى لطيته مندفعا إلى بيت زينب.

كان الأرق فى تلك الليلة قد جد بزينب. وخفق قلبها لذكرى أبى العاص وشوقـا إليه، وكأنها كانت تتـخـيل فى لحظ الغيب مـا حاق به من مكروه فـقد حدثها قلبها حديثا ونازعتها نفسها إلى ابن خالتها أبى العاص، فهل ارتدت لهفتها حين أطل عليها لائذاً مستجيراً؟ وهل اطمأن قلبها حين رأته بين يديها يقص عليها ما عرض لقافلته من سلب وعدوان؟

لقد رقت له زينب وأشفقت من تعرض أبى العاص لأقاويل قومه، وفيهم ناس دفعوا إليه أموالهم وحملوه بضاعتهم، فشكا إليها همه وكيف يلقى هؤلاء الذين وضعوا مالهم أمانة فى عنقه، وقد شاء القدر أن يئول إلى المسلمين فلا منجى له ولا معتصم إلا بزينب وأبيها.

وكانت زينب ترجو أن لو أتاها أبو العاص مؤمنا مذعنا، ساعيا لمرضاة الله، فيشاركها فى دينها ويعود إليها مسلما متندما على تماديه فى عنفه، وغلوه فى حفاظه وتمرده، لكنه أتاها حائراً مستجيراً، وقد بلغت شكاته قرارة نفسها، فكيف لا تجيره وتخرجه من ضيقه وهى العربية الوفية التى لا تخفر الذمة ولا ترد المستجير؟ ولو أن أبا العاص لم يكن لها زوجاً لأجارته ولما حال

بينها وبين غوثه ونجدته دين أو خلاف، فكيف وهو أبو ولديها وابن خالتها؟ لقد عزمت زينب أمرا ولن ترجع عنه، وستمضى إلى تحقيقه مهما كلفها وعانت من أجله.

ها هى ذى بنت الرسول تدلف إلى المسجد فى مطلع الفجر وتنتظر على الباب حتى يصلى أبوها الصبح بالمسلمين، وها هى ذى تطل على النبى وصحبه وهم فى المسجد، ثم تقف تلقاهم، وتنادى بأعلى صوتها:

- إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فيدهش الرسول ويعجب المؤمنون من حوله فيأخذهم الإشفاق والإكبار لهذه الزوجة الوفية الحنون، ويقول الرسول:

- والذى نفسى بيده ما علمت بشئ مما كان حتى سمعت الذى سمعتم! المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارت زينب.

فاستجاب له المؤمنون، وأحسوا لبنته الرحمة والإشفاق، فسارعوا إلى تلبيتها وإجارتها، وراحوا واحداً خلف واحد يجمعون المال الذى كان فى قافلة أبى العاص والمتاع الذى توزعوه، فردوه كاملا غير منقوص عن رضا وطاعة ورأفة. وشاهد أبو العاص أمانة المؤمنين وصدق إجارتهم وحدبهم، وشاهد ردهم مال القافلة بأمانة وإخلاص. ورأى صلاتهم وقنوتهم فشرح الله صدره للإسلام عن رضا وإيمان بغير قسر ولا إكراه، وكادت عيناه لا تصدقان أن يديه أمسكتا بخطام القافلة ومالها ومتاعها فأعد عدته للرحيل، وفصل من المدينة مرتداً إلى مكة ليعيد المال والمتاع لأصحابه، ولم يكد يبلغ يثرب حتى كانت أخباره وأخبار القافلة قد سبقته إلى قومه فخرج إليه القرشيون ليأخذوا بتلابيبه ويداينوه، وما راعهم إلا مالهم وبضاعتهم بين أيديهم يعيدها إليهم أبو العاص كما أخذها، فيقبل عليه أصحابه، ويسألونه عن محمد وكيف استرد منه المال بعد سلب القافلة، فيقص عليهم أبو العاص أحسن القصص عما شهد من فضل محمد

وهدى المسلمين وكأنه السحر من فيه ينفثه على كفرهم وعتوهم، فيتمنى بعضهم أن لو آمنوا بالرسول واتبعوا ملته واهتدوا بهداه، ويتميز من الغيظ كبارهم وأقوياؤهم فلا يعجبهم قصص أبى العاص، وإنما يتلقونه مستهزئين ساخرين ويسألهم أبو العاص:

- يا معشر قريش.. وهل بقى لأحد منك عندى حاجة؟

فيجيبه أصحاب المال والمتاع:

- لا.. يا أبا العاص! جزاك الله عنا كل خير، فقد وجدناك وفيا أميناً.

وسكت أبو العاص قليلا، ثم تقدم بآيته الكبرى، فقال على ملأ من قومه:

- اشهدوا يامعشر قريش بأننى آمنت بما جاء به محمد واستجبت لرسالته التى تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن المنكر والبغى. والله ما الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أنى أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم. أعلنتكم إيمانى بهذا الدين الجديد.

فبهت أصحابه ممن عصوا الرسول وكانوا مستكبرين، وثاروا على أبى العاص إذ كانوا يعلمون حميته الجاهلية وإقامته معهم على مناوأة المؤمنين، فكيف استكان ولان؟ ولعلهم عنفوا عليه بالعتاب والملام، وكان معهم نساء لا يشاركن رجالهن فى لوم أبى العاص وخروجه عليهم، إذ كن يعرفن زينب ويعلمن أنه لا ينبغى لمثلها أن تفارق أبا العاص ولا لمثل أبى العاص أن يصده الدين عن زوجه الحنون.

وجمع الإسلام شمل الزوجين الحبيبين تحت ظله الظليل الذى انبسط فى أرجاء مكة بعد فتحها، فآثر أبو العاص أن يبقى مقامه فيها. إذ كان فيها بيته وعدته وفيها أمواله وتجارته. فضم إليه زينب بعد فراق طويل امتد ستة أعوام وكأنها ستون عاماً. فكان هذا اللقاء أنسا بعد وحشة ونوراً بعد ظلمة وسعادة

بعد شقاء، وراح أبو العاص يغمر زوجه زينب بالحب والمودة، فوجدت بنت الرسول لقاء أبى العاص بعد الفراق غاليا. وإن شق عليها أن تكون فى مكة وأبوها فى المدينة، وغدا محمد مبتهجا بعودة أبى العاص إلى بنته زينب، مسرورا بإيمانه وإذعانه للحق.

وشاق الرسول بعد حين أن يرى زينب بعد غيابها عنه فى مكة، فأرسل إليها من أهله من يأتيه بها إن لم يستطع أبو العاص أن يصحبها، وإنها لفى طريقها إلى يثرب وركبها يخب بها فى عرض البيداء، إذا نفر من قريش ممن مردوا على طاعة الرسول واعتصموا بكثبان الرمل للعداء والإيذاء، يقطعون الطريق على ركب زينب، وكان فى أولئك الأعداء الأشداء هبار بن الأسود، فلما علم أن فى الهودج بنت الرسول، لم يتحرج من اقتحامه، فاستحكم الرمية ونخس زينب برمحه فقرع ظهرها وكانت حاملا.

وذعرت بنت الرسول وارتاعت حين وقعت وأريق دمها، فحملوها إلى بيوت بنى عبدمناف بين مكة والمدينة، وهى تتحامل على نفسها فقد أسقطت حملها، وخذلها ضعفها.

فيا فجيعة محمد فى بنته زينب حين بلغه الخبر! ويا لوعة أبى العاص حين لحق بها من مكة، وكان يعض أنامله غيظاً ويود لو يحرق البيداء على ابن هبار الذى غيبه الفرار وأخفته الرمال.

وبقيت زينب تتقلب فى مضاجع السقام خاوية الجسم مكروبة النفس، وكيف يقوى جسمها الموهون الذى أسقمته الخطوب وأضنته البيداء، بين مكة والمدينة فى الحل والترحال منذ هاجر أبوها ومنذ فارقت أبا العاص، وكأن تلك الرمال الرمضاء كانت ظمأى لاهبة. فآلت أن لا ترتوى إلا بدم زكى من آل الرسول.

كانت زينب ريحانة لمحمد وروحاً لأبى العاص، فذوت تلك الريحانة وفاضت تلك الروح إلى بارئها تشكو ظلم الإنسان فحزن الرسول عليها وبكاها،

وأهدر دم قاتلها بأى أرض أخذ، فانطلق أبطال المؤمنين يبحثون عن ابن الأسود في فجاج الحجاز وشعب الجبال، وقد حاول هذا الجارم الآثم أن ينسل إلى الأعاجم، هرباً من وجوه المؤمنين الذين هالهم أن تمتد تلك اليد الجانية إلى بنت الرسول فتؤذيها ضرباً ورعباً، ليشفى غيظه من أبيها وزوجها، فتعقبه الأبطال، ولكنهم لم يدركوه.

وجدد موت زينب حزن الرسول، وامتلأ قلبه لوعة وحسرة، وأشفق المؤمنون من حزن نبيهم، وأقسموا بالله لئن أمسكوا بذلك المعتدى الأثيم ليقتلنه شر قتلة، فيصبر النبى ويثوب إلى قلبه المكلوم ما ند عنه من الحلم والصبر والرحمة.

وإنه لفى مجلسه يتحدث إلى الزبير بن العوام بما أصابه من المكروه إذ برجل ملثم كبير الجرم كأنه الجمل، يقتحم مجلس الرسول ويبرك بين يديه مستعبراً مستجيراً، قائلا:

- حللت رحابك يارسول الله ولثمت ركابك، أنا هبار بن الأسود ذلك الجانى على نفسه، جئتك بسنانى الأثيم لتطعننى به جزاء ما اقترفت من ذنب لئيم.

فرفع إليه الرسول وجهاً يترقرق الحزن فى أساريره، ولم يكد يفرغ هبار من اعتذاره واستغفاره حتى نظر إليه النبى بعينين ليست فيهما نقمة الإنسان، عينين ما خلقهما الله إلا فى وجه ولى من أوليائه أو رسول من رسله، وتماسك الرسول فأصغى إلى هبار، وقد انجلى عن قلبه المحزون ما كان يعتلج فيه من حس مكظوم، واسترسل هبار فى توسله، فقال:

- لقد ركضت فى سبابك وكنت موضعاً فى غيظك، ولكنى كنت مخذولا، وأبى الله إلا أن يخزينى ويجزينى العذاب، وقد هربت منك فى البلاء

والشدة. ثم ذكرت صفحك عمن جهل وضل، وكنا من الجاهلين فاهتدينا بهديك، فاعف عني يارسول الله. إني معترف بجريرتي.

فنظر إليه الرسول وعيناه في الملأ الأعلى حيث تغسل الذنوب وتغفر الخطيئات، وعفا عن هبار الذي آذى بنت الرسول حتى قضت نحبها بعد ضربها، كما عفا من قبل عن هند بنت عتبة التي مثلت بعمه حمزة.

واستقبل الرسول هذا الصفح والغفران بمطلع السنة الثامنة للهجرة، وما كان الرسول بعد هذا العفو ولا كان أبو العاص خليين من الشجون، ولئن صفح الرسول عن ذلك المعتدي الأثيم، فما صفح بعده عن حزنه المقيم وخطبه الجسيم، فكان يبكي زينب في قلبه، ويجد في صدره نور العزاء والإيمان إذ كان صفحه عن قاتلها باسم الإسلام الذي يجبُّ ما قبله.

كانت وفاة زينب بعد عام من جمع الشمل وعودة الصفاء بالمودة واللقاء. فإن بنت محمد ألحت عليها العلة الوبيلة من أذية هبار فحزن الأب والزوج. وكان أبو العاص بعد الزوجة الوفية مثال الولاء والوفاء.

رقية وأم كلثوم
(الشقيقتان المتلاحقتان)

«شعاعتان وضيئتان من النور النبوى، شرف عثمان بن عفان بالاقتران بهما، فاصبح «ذو النورين»

لقد سبق من الحكمة الإلهية أن كان محمد صاحب الرسالة الإسلامية أبا البنات لا أبا البنين، فإن العرب فى الجاهلية كانوا إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب؟

لقد وأدوا البنات خشية فظاعة عم أو جفاء ذوى رحم ففضلوا لهن الموت على الحياة رحمة بهن على زعمهن وإشفاقاً من مصير مجهول حتى جاء الإسلام وحرم الوأد والتجهم للأنثى فأنصفها وكرمها بأحكامه ومعاملته.

ولم يكن هذا المنع والتحريم لصد النفوس عما طبعت عليه منذ القديم من إيثار البنين والتحرج من البنات حتى فى عصر الحضارة الإنسانية وانتشار العلم بين الجنسين، مهما تكن التقاليد الاقتصادية والاجتماعية والوراثة النفسية.

فمن حكمة الله أن أوتى محمد البنين الذين طواهم الردى أطفالا وأعطى البنات فكن أربعاً عشن معه وكانت الطبيعة العربية لا تضحك لحياتهن فشاء القدر أن يكون محمد أبا بنات يتسامى بإنسانيته ومعاملته فى رعايتهن ليكون القدوة للمؤمنين فيما ينبغى للبنت من حقوق صانها الإسلام ومكانة تليق بحياتها ورسالتها.

وإن أبوة الرسول لبناته كانت حدثاً جديداً فى حياة المرأة العربية ونظرة الدين إليها حتى قال عمر بن الخطاب بهذا الصدد «كنا والله فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم»..

ووهب الله لمحمد أولى بناته زينب ثم رقية وبعدهما أم كلثوم ثم الزهراء، وكان نصيب الشقيقتين رقية وأم كلثوم مشتركاً فيما حمل من مرارة وحسرة.

لقد تزوجت الكبرى ابن خالتها أبا العاص بن الربيع، وكانت خديجة تعد فتاتها للرجل الذى كان له من خصاله وفعاله ومن مروءته ومكانته ما يليق ببنت محمد، ورأى آل عبدالمطلب بعد زواج زينب أن يسبقوا إلى خطبة الأختين رقية وأم كلثوم فبنو الأعمام لا يقلون عن ابن الخالة مجدا ونسبا.

ولم يكن الخاطبان القريبان إلا عتبة وعتيبة ابنى أبى لهب. وأبو لهب كان يحب ابن أخيه محمدا ويرعاه ويصد عنه كل ضيم، ولما ولد يتيما وتلقى خبر ولادته أعتق الجارية التى سمع منها البشرى، وشب محمد بين أعمامه مكرماً وإن اختصه أبو طالب منذ طفولته بالرعاية والعناية، فلما جاء عمه هذا يطلب رقية وأم كلثوم لابنى أخيه لم يستطع محمد أن يرده بل استجاب له وجعل أمهما خديجة بالرغم من تخوفها عليهما من أم الخاطبين ترضى بهما صهرين.

ولم تشأ خديجة بنت خويلد أن تكشف لزوجها عن قلق جال فى سرها وخاطرها منذ خطبت البنتان الصغيرتان، فإن زوجة أبى لهب عرفت بين عشيرتها وجيرتها بحدة المزاج وكيد النساء حتى أنها جعلت زوجها لا يعصيها فى أمر، وقد ترامى إلى خديجة أن أم عتبة تتناولها باللمز للفرق فى العمر بينها وبين محمد فأسرت قلقها فى نفسها وجهزت للزواج شقيقتين سلفتين.

ولئن كانت الشقيقتان فى مطلع الصبا زهرتين نضرتين فإنهما منذ عقدت خطبتهما أصابهما وجوم وفتور، وكان المنتظر أن تبدوا ضاحكتين فرحتين فقد عز عليهما فراق الأخت الصغيرة والأبوين المحبوبين وكتمت كل منهما خشيتها من حماتها أم جميل زوجة أبى لهب، لكن كلا منهما سكتت على مضض وقالت لشقيقتها:

- وهذا نصيبنا ولن يتخلى الله عنا.

وأجابت الثانية: ألا ترين أباك مشغولا عنا، وكأنه يحمل هم الدنيا، وأمنا خديجة موزعة الفكر والنظر، تعللنا بالسعادة القريبة وتشارك زوجها فيما يعانى من قلق البال.

وما هى إلا أيام حتى زفت الفتاتان، وفرح الزوجان الأخوان، لكن أمهما كان ينغصها أن ترى هؤلاء الأربعة ناعمين بحياة جديدة معتزين بالقرابة التى جمعتهم.

وبزغ فجر الإسلام على دنيا العرب من بطحاء مكة، وحمل الرسالة محمد الأمين فراح يدعو أقرب الناس إليه صحبة وقربى فهاج أكثرهم وغضبوا، ولما

هتف الرسول بعشيرته الأقربين، واصباحاه! أقبلوا عليه متسائلين فدعاهم للإيمان بالله وأنذرهم، فتصدى له أبو لهب بالسخرية والتهكم وهو الذى كان لا يطيق أن يمس الأذى ابن أخيه محمداً فكيف يهتاج ويهدد قائلا:

- يا معشر قريش! إن محمداً يسفه أحلامنا ويفتنكم عن دين آبائكم.

ويروح أبو لهب ويجئ وهو ناقم غاضب وقد أيقظت نقمته كل من فى بيته ووصل تهديده للعروسين الضعيفتين، وهبت امرأته بنت حرب إلى نار الفتنة تشعلها بلمزها وهزئها وتحلف الأيمان بأنها لن تبقى فى بيت زوجها أبى لهب مع بنتى محمد الذى قال لمن آمنوا به بأن الله أنزل فيها وفى زوجها هذه السورة:

«تبت يدا أبى لهب وتب* ما أغنى عنه ماله وما كسب* سيصلى ناراً ذات لهب* وامرأته حمالة الحطب* فى جيدها حبل من مسد».

وتعود أم جميل إلى الشوك والعوسج فتلقيه على باب الرسول وفى طريقه، وعلى لسانها سباب لا ينتهى ولا تجرؤ رقية وأم كلثوم على كلمة ترد فيها الشتيمة التى طرحتها الحماة الظالمة فى درب أبيهما، ولم تهدأ ضغينة أم جميل ومكيدتها حتى سمعت زوجها أبا لهب يقول لولديه عتبة وعتيبة: رأسى من رأسيكما حرام إن لم تسرحا بنتى محمد!.

ووقف الأخوان واجمعين يشعران بالشقاء لهذا الوعيد الذى صبه على رأسيهما أبوهما الأحمق. فارتدت الشقيقتان إلى بيت أبيهما طالقين تبكيان نصيبهما الخائب فى زواج غير سعيد، سقتهما فيه العلقم حماتهما الغاشمة، ففتح الأبوان صدريهما لابنتيهما العائدتين إلى بيتهما الأول الذى غمرهما بالحنان والعزاء وأنقذهما من كيد الحماة الظالمة وسباب زوجها وتهديده.

لقد ظن أبو لهب وجماعته بأن محمداً سيشغله طلاق بنتيه عن رسالته التى بذل لها الإخلاص والفداء، فازداد غيظهم وهاجت أضغانهم، فلم يتركوا سبباً من أسباب الجفاء والبلاء دون أن يتخذوه فى الدس والكيد والافتراء. وكانت خديجة وبناتها يهونّ على الرسول ما يلقى ويسمع، ومحمد يدعو الله فى لهفة وابتهال أن ينجى المؤمنين من هؤلاء الأعداء الأقربين الذين عجبوا أن

صبر أصحاب محمد على كل أذية منهم وافتدوا الرسالة بالروح والمال وكان من أسبقهم إلى الفداء عثمان بن عفان أحد العشرة المبشرين بالجنة. فلما خطب رقية بنت الرسول زوجة له واعتز محمد بهذا النصير الكريم ازداد سخط الناقمين فارتأى أن ينطلق الأنصار والأحرار من المؤمنين إلى أرض غير أرضهم، لعلهم يجدون آفاقاً لا تضيق بهم ولا تؤذيهم فقال لهم:

- ماذا عليكم لو خرجتم من مكة إلى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فانصرفوا إلى أرضها وأهلها ومن ينصر الله ينصره.

وتنادى نفر من المؤمنين إلى الهجرة فبادر عثمان بن عفان إلى دعوة الذين يطيقون السفر والمشقات، وكان جمعاً كريماً من الصحب وذوى القربى ومعهم نساؤهم فتعلقت عيونهم بالبلد الذى أنبتهم وبالرسول الذى بذل حياته وأنقذهم من الجهل والهوان، وكانت رقية ترقأ دمعها وهى تعانق أبويها وتضم إلى صدرها شقيقاتها وزوجها عثمان بن عفان يمسك بيدها ويأخذها إلى هودجها ليمضيا فى القافلة إلى أرض الحبشة حتى هون الله على المهاجرين هذه المشقة إلى الأرض البعيدة، وقد وجدوا فى حمى النجاشى ملك الحبشة عدلا وفضلا. لكن قلوبهم بقيت فى مكة فتتبعوا من بعيد أخبار الرسالة والرسول، وجمعت الغربة بين المهاجرين المستجيرين حتى قيل لهم بعد شهور إن قريشاً خففت من كيدها وأن المؤمنين فى ازدياد وانتصار فعاودهم الحنين إلى الوطن وعادوا على السفن التى أعدها لهم النجاشى وهم لا يكادون يصدقون أنفسهم بهذه العودة.

وسارعت رقية بنت محمد إلى بيت أبيها فلم تجده إذ خرج قبل وصولها إلى لقاء العائدين، وسألت عن أمها فأجهشت أخواتها فى البكاء. وكان الدمع الصامت والبيت الحزين يشفان عن فجيعة الزوج والبنات بالأم الحنون التى لم يمهلها الموت حتى تعود بنتها رقية المهاجرة الصابرة.

ومنذ علمت رقية بوفاة والدتها كانت لا تفتر لها حسرة حتى جاءت الهجرة الثانية إلى المدينة، فراحت رقية مع زوجها عثمان بن عفان وكانت

حاملا، فلما ولدت عبدالله بن عثمان خففت عنها الأمومة بعض متاعبها النفسية لكن عبدالله لم يعش، فحزنت عليه وخافت أن تفقد عثمان فى المعركة القادمة، فإن الهزال تسلل إليها وعلامات الموت كانت تشير إلى نهاية أيامها، فكان زوجها لا يفارقها حتى أنه لم يشارك فى معركة «بدر» إذ كانت رقية ممتحنة فى صبرها على الداء والبلاء، وكأنها فى عراك مع المصيبة فى موت طفلها وأمها، وفى المرض الذى دهمها فى عز صباها فلازمها زوجها عثمان بن عفان حتى فاضت روحها وشقيقاتها الثلاث حوامات عليها بالدمع والنحيب، ونسوة الرسول يندبن الصبية التى لم تشبع من عمرها ولم تسعد بأمومتها فلحقت بأمها وفارقت الدنيا وفى نفسها حسرات.

وتجلد محمد وهو ينهنه من نحيب أخواتها وصواحبها وكان زوجها عثمان يبكيها كالنساء، وكأنه بكى حياته التى عللها بالسعادة والمجد مع بنت الرسول، ولكن الموت لم يرحم شبابها ولم يترفق بأمله الكبير.

وطال بكاء الأخوات اللاتى فارقتهن الشقيقة المهاجرة فى الحياة وفى الممات، إذ كانت هجرة رقية مع زوجها عثمان قاسية عليهن، فلما فجعتهن بفراق الردى جددن الأحزان وذكرن حرقة الأم لو كانت بينهن، لكن الله كان أرحم بخديجة فسبقت فتاتها الصبية قبل أن تفقدها وهى التى عاشت عمرها محزونة فى قلبها لأن الله وهب لها اثنين من الذكور كما وهب لها الإناث الأربع لكن أبا القاسم المولود قبل الإسلام وعبدالله الملقب بالطيب الطاهر المولود بعد الإسلام لم يكتب لهما العمر. فبقيت فى سرها متلهفة على أنها لم تر محمداً ممتلئ القلب سعادة بغلام منها، وهو الذى عاش عمره شديد الحنين للولد حتى وهب الله له إبراهيم على الكبر من زوجته مارية المصرية، لكن إبراهيم لم يكمل العامين حتى استرد الله وديعته فحزن قلب محمد لفقده لكنه أسر هذا الحزن، فإن الحكمة الإلهية شاءت أن ينعم بأبوة البنات لا بأبوة البنين ليكون فى هذا الأمر عبرة لمن وأد البنت وفضل الولد خشية إملاق وهوان. وكان الرسول أبا روحياً للمؤمنين بل متمرساً بهذه الأبوة الفياضة بالمحبة والحنان فقد رعى علياً ابن عمه كما رعاه فى صغره هذا العم الكثير العيال، وتبنى زيد ابن حارثة الذى وهبته

خديجة بنت خويلد لزوجها محمد قبل الإسلام ثم أعتقه ورباه كولد له حتى زوجه بنت عمته زينب الأسدية ولما ألغى الدين أحكام التبنى فى الوراثة وتركته زوجته كرها شاء الرسول أن يفهم المؤمنين أن التبنى السابق لا يمنع زواجه ممن كانت زوجة لمن رعاه ورباه.

ولقد فاض شعور محمد بحب بناته فحدب عليهن وقرب إليه أزواجهن، ولما توفيت زوجته خديجة ازداد عطفه عليهن واهتمامه بأمورهن فلم تشغله الرسالة عن كل ما يدخل على قلوبهن الأنس والعزاء، ولما فقد رقية التى كانت صنواً لأم كلثوم شق عليه أن تشعر بالوحشة شقيقتها ورفيقة عمرها وزواجها الأول، فكانت الطمأنينة تدخل قلبه كلما رأى فتاته أم كلثوم مشغولة بأختها الصغيرة فاطمة الزهراء تحنو عليها وتلتصق بها وتؤثرها على نفسها. وكان انتصار المؤمنين فى بدر إبان الحزن الذى دهم بيت الرسول فكان اجتماعه بصحبه وتذاكرهم ما وقع لهم خلال المعركة وبعدها مشغلة لهم وكان عثمان بن عفـــان لايفارق مجلس محمد حيث يلتمس فيه العزاء والخوض فى أحاديث المجاهدين وما كابدوا فى «بدر» من عدوان الثائرين المكابرين حتى كان الرسول وحده فى مجلسه يرتقب قدوم أحبابه وإذ بصاحبه عمر بن الخطاب يستأذن فى الدخول، وماراع الرسول إلا عبوس عمر وملامحه التى شفت عن غيظ مكبوت فسأله محمد:

- ما بالك اليوم غاضباً تتكتم فيما تخفى؟

وكأن رسول الله قرأ بلحظ الغيب ما كان يدور فى بال عمر فأعاد القول: هات ما عندك!

فأجاب عمر بأنه غاضب لأن صاحبيه أبا بكر الصديق وعثمان بن عفان لم يستجيبا لرغبته فى أن يتزوج أحدهما بنته حفصة، وحفصة فى بيته تعانى وحشة وحزناً، فقد مات زوجها وهى فى زهوة الحياة وملأت بيت أبيها من كآبتها وانكسار خاطرها ما جعله يقدم على إبداء رغبته لصاحبيه وفى هذا الإبداء ما فيه من مس لكرامته وعزة نفسه لولا أنهما موضع ثقته ومحبته.

فهش الرسول لصاحبه عمر وقال له:

- هون عليك، يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة.

فاعتدل عمر فى مجلسه وتساءل فى نفسه:

- ومن يكون هذا الذى يعنيه غير محمد نفسه؟ فإن جواب أبى بكر كان سكوتا وجواب عثمان كان تأجيلا ورداً، فما أسعده بكلام محمد وقد فطن إلى ما يريد؟

وفطن الرسول إلى ما يبتغى عثمان من التزام مجلسه والتصاقه بأهله، ولم يجد ما يصده فيه عن رجاوته. ولعثمان فى نفس محمد مكانة ومعزة فاستجاب له وأرسلت أم كلثوم من بيت أبيها إلى بيت زوجها عثمان بن عفان محفوفة بالعناية والمؤانسة، غير أنها ما كادت تحل فى هذا البيت الجديد حتى تراءى لها وجه أختها رقية فى زواجها الأول معها ثم فى زواجها الثانى فتمنت أن تلحق بها ولا تحل بديلا منها.

ولم ينسها حنان أبيها وود زوجها وجه الشقيقة التى ارتبط بها نصيبها وما صرفها انتصار المؤمنين فى معاركهم الصغيرة والكبيرة عما يعيش فى خاطرها ولا يفارق شعورها، والله يعلم كم قاست لفراق الزهراء التى كانت لها أماً بعد خديجة ولم تسعد بأمومة منها تفديها فافتقدت ذكرى شقيقتها ووالدتها واستعجلت النهاية، فلم تذق اللوعة لفراق أبيها إذ غابت عنه قبل أن يغيب عن الدنيا بسنة واحدة ففجع بموتها وتجدد حزن الأختين الكبرى والصغرى زينب وفاطمة فكانتا فى مأتم لهذه الفجيعة.

وقد امتد العمر بزوج الشقيقتين المتلاحقين عثمان بن عفان حتى صار من الخلفاء الراشدين، وشهد معارك المتزاحمين والمتنافسين، وكان مصرعه استغلالا لهولاء الذين لم يرحموه، فانطوى شهيداً تبكيه القلوب ويرثيه التاريخ، وبقى قميصه المشهور رمزاً لكل دعوة مضللة ليس وراءها إلا الافتراء والادعاء.

فاطمة الزهراء

(أم الحسنين)

«الزهراء ، البتول، أم أبيها، سيدة نساء أهل الجنة»

«ما رأيت يافاطمة أفضل منك غير أبيك»
من حديث عائشة رضى الله عنها

نادها محمد

يافاطمة، يا أم أبيك!

وكان في صوته غنة ملائكية فياضة بالحنان، ممزوجة بالحزن والإشفاق، صعدت من فمه، لكنها كانت من سويداء قلبه.

فأقبلت الزهراء نحو أبيها، تمشي مشيته المحببة إليها، وكانت خفيفة الخطى، باسمة الوجه، متألقة العينين، تتلقى من رسول الله نفحة إيمانه ورضاه، وبركة أبوته ونبوته.

سعت فاطمة إلى أبيها تقرأ على وجهه المهيب بذكاء النظرة واستشفاف الفطنة لمحة الوحي، فقبلت يده وقالت:

- نعم يارسول الله، بروحي أنت وولدي!

فأجلسها عن يمينه، ومال على أذنها يسر إليها كلاماً، فلم تكد تقع كلماته في قرارة نفسها، حتى تجهم وجهها، وفاضت عيناها دمعاً، فعجبت عائشة وأخذتها الحيرة، وتطلعت إلى وجه الزهراء تقرأ ملامحه وأساريره، ثم دلفت نحوها لتعلم النبأ الذي غشاها حزناً وصمتاً، وإذا بها ترد طرفها وترتد من قريب، فتجد رسول الله يدنو من فاطمة ويسر إليها كلاماً، فإذا وجه فاطمة يرتد إليه بشره، وتشيع فيه نضرته، وتفرغ على قسماته همسات الرسول إيماناً ونوراً، وإذ بوجه باسم أزهر يكاد يطفر من إشراقه لون السرور والحياء.

فبادرت عائشة تسأل فاطمة عما همس الرسول في سمعها، فكان الجواب ابتسامة فيها لهفة ولوعة، وفيها رقة وإشفاق ثم قالت:

- ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن!

ورنت الزهراء إلى أم المؤمنين بالصمت والابتسام، فلما ألحت عليها عائشة بالسؤال، قالت فاطمة:

- ما كنت لأفشي كلاماً أسره إلى رسول الله!.

ومن يدرى فلعل محمداً وهو يلقى فى سمعها تلك الكلمة الخفية المكتومة كان يكر فى خياله ماضى فاطمة، وتتفتح له على الذكرى أيام طفولتها بين يدى أمها، فتعيد هذه الصور فى نفسه أنسا بها وتلهفا عليها، وكانت حياة فاطمة فى ذلك الماضى الذى يتصوره الرسول حافلة بأعز الذكريات.

وفى ليلة مولدها قبل النبوة بخمس سنين! لقد ملأت مكة بهجة ومرحا، فرجعت تحت سمائها غناء وترتيلا أصواتها الندايا الرخيمات، فرحا بميلاد فاطمة، لكأن خديجة فى تلك الذكرى قامت عن خير نساء العالم، وها هو ذا محمد مكب على المولودة وهى صغرى بناته يشم من عنقها ريح آمنة بنت وهب، ويستشف ستار الغيب، فيرى من خلفه شجرة فرعاء، يبهج القلب ثمرها، ثم لا يلبث قطافها أن يجرحه فى شغافه.

وشبت فاطمة بين أمومة كريمة غرست فى نفسها الطاهرة الفضيلة والحنان، وبين أمومة رحيمة أودعت قلبها الزكاء والإيمان، وإذ بمحمد يبرها ويؤثرها، فيغضب لغضبها ويرضى لرضاها.

وتخطو الزهراء فى زهوة العمر وعلى طلعتها مثل نور أبيها، ويسرى فى مكة صيت جمالها وفطنتها، وسماحة خلقها وطبعها، فتاقت إلى خطبتها قلوب الصيد من مهاجرى قريش، ولا يكاد الأنصار وعهدهم بالرسول جديد. يقدمون على طلب هذه الدرة الغالية حتى يتوسل أبو بكر إلى رسول الله ويخطب منه فاطمة لنفسه، فى سانحة مؤاتية، ولكن الرسول تبسم وأحس الإشفاق على صاحبه، ولبث صامتاً مطرقاً، ثم انفرجت شفتاه عن قول معروف وجواب فيه الأدب والرفق والحصافة.

- انتظر فيها القضاء.

وكانت كلمة فيها صد وفيها تأميل، فانكفأ الصديق بعدها إلى غير معاودة، وندب عمر بن الخطاب نفسه للحسناء الغالية فالتمسها من أبيها، وأحسن محمد رده.

وكانت فى قلب «على» لهفة إلى الزهراء ورغبة فيها كصاحبيه. فأجفله أمرهما، ولكن قائلا من أهله دفعه وشجعه:

- يا على! أنت بها أجدر. وشفيعك القربى...

فتقدم على فتى الفتيان خاطبا فاطمة، وكان قلبه حذرا ونفسه حرى، وشد ما فرح حين قال له محمد:

- مرحباً وأهلا...

فارتد إليه أمنه وبشره، ولم يصدق سروره، فخرج إلى صحبه بالبشرى، وأعاد عليهم كلمتى رسول الله:

- مرحباً وأهلا...

وفرح بعضهم لفرحه قائلين:

- تكفيك منهما الكلمة الواحدة!

وترامت العيون على ابن أبى طالب من مغتبط جذلان، وحاسد واجد، وأى فتى فى العرب لا يدب بين جناحيه الحسد لمن كان زوجاً لبنت الرسول؟.

وملأت الفرحة نفس على وأخذ منه الشوق والظفر حتى خامره قلق نزع عن قلبه الطمأنينة، فنازعته نفسه لأن يستوثق من محمد ويحقق له خطبة فاطمة، ولا يكاد يبلغه ويتصل بينهما الكلام حتى يضحك الرسول وينكر على ربيبه وابن عمه هذا القلق العنيف، وهذا التحرق إلى الطمأنينة فيقول له:

- لست دجالا ياعلى، أعدك وأكذبك!

ودعا الرسول صحابته الأولين، أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير فلما أخذوا مجالسهم، خطبها الرسول وأعلنهم تزويجه فاطمة من على بأمر الله وإلهامه، ودعا ربه أن يبارك لهما هذا الزواج، ويخرج من نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة.

وغلب السرور علياً فقبل يد الرسول وأشرق وجهه فرحاً ومرحاً وأمر النبى بطبق فيه تمر وضعه بين أيدى صحابته فأكلوا منه مبتهجين لابتهاج نبيهم، متلطفين لعلى، مهنئين ومستبشرين.

وكانت الزهراء غالية القدر أكثر مما كانت غالية المهر، ومحمد نهى عن الغلو بصداق النساء، فزوج بنته الحسناء بأربعمائة درهم من الفضة ليضرب للناس المثل على أن خير النسوة من كانت على سماحة الخلق حصانة السلوك أغلى عند الرجال من غاليات المهور..

ولم يكن على ذا مال. فباع بعيره بأربعمائه وثمانين درهما أدى منها الأربعمائة مهراً لفاطمة، فقال محمد:

- اشتروا بها طيباً للزهراء وثياباً.

ولم يكن فى جهازها زخرف ولا بهرج. وإنما كان متاعها فراشاً من جلد كبش، ووسادة محشوة بليف، وكان فيه غطاء قصير وقربة ومنخل، وكأس ورحى.

وأقبل الرسول بعد صلاة العشاء ليلة البناء، فجاءته بنته فاطمة تتعثر فى ثوب العرس من الحياء، وقد تضرج خداها وأزهر محياها، وغضت من طرفها، فقرأ عليها الرسول المعوذتين وبعض الدعاء، ثم أخذ بيده قمقماً من الطيب، وقد حبب إليه من دنياه، فنضح فاطمة برشاشه كما نضح علياً وقال لها:

- زوجتك يا فاطمة خير أهلى، وتركتك وديعة عند زوج كان أسبق الفتيان إلى الإيمان، وإن علمه لفوق ما يبتغى العلماء..

ولقد زوج الرسول علياً من خير ولده، لكنه أبى أن يقولها فيمن عليه، وكان من طبع محمد وسماحته ألاَّ يمن بالمعروف ولا يثقل بكلامه على الناس.

وكانت هدية العرس كبشاً من الأنصار ومقداراً من الذرة، ولم تخل الوليمة من التمر والزبيب.

وسكن على إلى زوجه فاطمة راضى النفس مبتهج القلب، فملأت عينيه وقلبه بوسامتها وحنانها، وجعلت بيته على فراغه مليئا بالإيمان والبركة والأمومة.

لقد امتلأ بيت على ببنت محمد وولدها، فعاشرها على بالمودة والمعروف، وشهدت فاطمة فى حياتها عنده يسراً وعسرا، وتفقهت فاطمة فى الدين وحببها على فى العلم، فروت أحاديث عن أبيها ونظمت القريض.

ولم يكن علىّ على فيض علمه ليستعلى على بنت الرسول ويتأنف من رعايتها وخدمتها فى بيتها، وإنما كان يسعى بين يديها بالماء يمتاحه من البئر ويحمل إليها الدلو ليصب منه قليلا بعد قليل على عجينها الذى طحنت دقيقه فى رحاها، فإذا انقلب على وفاطمة من طعام تبلغا به، أخذ على يحدثها بما سمع من حديث رسول الله بعد أن تزوجها، وأخذت هى تروى له ما حفظت من أحاديثه قبل أن تتزوج.

كان محمد مدينة العلم، وكان علىّ بابها ومحرابها، فلما سكنت فاطمة هذه المدينة وتمكنت من الباب والمحراب تأدبت بأدب أبيها ووعت من سننه وأحاديثه ما عز على الرجال، وقد روى عنها ابناها الحسنان، وعائشة أم المؤمنين وأم سلمة، وسلمى أم رافع، وأنس بن مالك، وقد ظفرت بنصيب اكتسبته من بلاغة زوجها إمام البلغاء، فكان لفاطمة كلام فيه الفصاحة والرصانة.

وقد أباح الدين الحنيف للمرأة أن تأخذ زينتها فـي بيتها ولزوجهـا، وأن تختضب إذا شابت، ولا تنقطع عن التطيب ما استطاعـت، فكانت فاطمة لاتتجاوز فى زينتها ما قيض لها الإسلام ويسر الرزق، وقد وهب الله الزهراء رصانة فى طبعها وسماحة فى خلقها لا تبدلها الأيام.

ويبدو أن فاطمة كانت أحب بنات الرسول إلى أبيها، فهى صغراهـن، وهى شفيع زوجاته إليه، ومن صواحب عائشة، وقد روت أم المؤمنين أن محمـداً سئل مرة:

- من أحب الناس إليك؟

فقال: فاطمة

- ومن الرجال! -

زوج فاطمة.

وكانت العلاقة بين فاطمة الزهراء وبين زوجات أبيها قائمة على التكريم والقربى، فما منهن إلا من أحبت فاطمة وأكبرتها، ونافست ضراتها فى الزلفى والمودة لبنت الرسول.

وتغايرت نساء النبى، فوقع بينهن من الجدال والشحناء ما يقع بين الضرات والنظائر، فتوسلن إلى أم الحسنين أن تحمل عتابهن لأبيها فهن ينفسن على عائشة حظوتها عند الرسول، ويلتمسن أن يعدل بينهن وبينها.

وحن قلب الزهراء لنساء أبيها ونبيها، فراحت تشفع لهن عنده وتناشده العدل بينهن، فتضاحك الرسول وقال لها:

- يا بنية، ألا تحبين ما أحب؟

قالت: بلى

قال محمد وهو يشير إلى عائشة:

- أحبى هذه!

فضحكت فاطمة وضحك أبوها، وكانت تدرك مكانة عائشة عنده ومنزلة أبيها، والميزات التى اختصت بها بنت الصديق دون ضراتها.

كان قلب محمد فياضاً بالعطف والحنان على الزهراء وأولادها وزوجها، وكأنما كان القدر يشعره بما أضمر وأسر لهذه الذرية النبوية من مصائر الخطوب والويلات حين أقام الرسول على باب خيمة تضم هؤلاء الأحباب. وقد اتكأ على قوس، وجعل يرف لصغارهم برأفته ويفدى كبارهم بقلبه الحنون، فلم يستطع أن يكاتم حبه ودخيلة نفسه، فقام يوصى بأحبابه خيراً:

- يا معشر المسلمين! أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولى لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد، ولا يغضبهم إلا شقى الجد ردئ المحتد.

ولم يكن عجبا من الزهراء أن تزهد فيما زهد فيه زوجها، وأن تصبر على شظف العيش قانعة بالكفاف، فقد تأدبت بأدب أبيها وطبعت على الصبر والتقشف، فما قيل أنها ألحت على زوجها فى نفقة أو زينة، وإنما عايشته بالمودة والرحمة، وشاركته فى السراء والضراء، فلما اشتكى على إلى فاطمة عسره وتعبه فى الحياة، أجابته:

- وأنا والله قد طحنت حتى كلت يداى!

ثم مضت إلى بيت أبيها، تود أن تسأله، وقد بدا على وجهها شئ من الشكوى والحرمان.

فهش لها الرسول وسألها:

- ما جاء بك يا بنية؟

فغلبها الحياء والإباء، وردها عن شكاة بثها وبؤسها؛ فقالت:

- جئت أجتلى طلعتك يارسول الله!

ثم عادت إلى زوجها خجلة محزونة، فجاهدها علىّ على أن يذهبا معاً إلى الرسول، لعلهما يصيبان شيئاً مما أصاب المسلمون من المغانم.

فابتدرهما الرسول قائلا:

- لا أعطيكما وأدع أهل الصفة يبيتون على الطوى...

ونفذت كلمة الرسول إلى شعور هذين الزوجين الكريمين، فجعلا يعنفان بنفسيهما ويتلاومان.

وكانت معونة أهل الصفة فى تلك الآونة شاغل محمد، يلقاهم مصبحاً وممسياً، راثياً ومواسياً، فتعاهدهم بالبر والإحسان، وأخذ يغوى الأبرار بإغاثة هؤلاء البؤساء المهاجرين الذين أووا إلى ظل ظليل فى مسجد المدينة، وقد ألح عليهم الجوع والعرى، فدعا محمد إلى برهم وعونهم، وكلم المؤمنات فى الصدقات لهؤلاء المساكين، فنزعن الأقراط والخلاخيل، وألقينها فى ثوب بلال، ثم أمره الرسول أن يبيع هذه الزينة ليشترى بثمنها قوتاً وكساء لأولئك الطاوين الذين كانوا يستفون دقيق الأدم ويبيتون على التراب.

●●●

كان من دأب الرسول أن يتفقد فاطمة، فلا يحجبه عنها شاغل، فدخل عليها إبان دعوته لغوث أهل الصفة، فرأى على بابها ستراً، وفى يديها سوارين يخفقان، فغمغمت قسمات وجهه بما لاحظته فاطمة، وأشعرها بلومه وعتابه، ثم خرج صامتاً متجهماً، على غير ما تعودت أن تلقاه فراعها صمت أبيها، وهذا الإطراق الذى غشى وجهه بالانقباض، وأدركت أنه معنى بهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم جياعاً، وحطوا همومهم فى ذلك الظل من مسجد المدينة، فشق عليها أمرهم ومضت لأبى رافع تخبره برجعة أبيها وجفوته،

فذهب يسأل الرسول، فقال له: لا ترع فاطمة، فإنما نبوت عنها من أجل الستر والسوارين...

فلما أنبأها أبو رافع بما قال أبوها، نزعت الستر والسوارين، وأرسلتهما إلى أبيها ليتصدق بثمنهما على أهل الصفة.

وغدت فاطمة على أبيها مستحيية واجمة، مستغفرة لما أخذت فيه من زينة فرحت بها، فقام لها الرسول عن مجلسه وأخذ يدها فقبلها ودعا لها ولأولادها، وأكبر برها وطاعتها وإيثارها، وقد وعدها شرف الدنيا والآخرة.

ولما ترامى إليه أن بنى هاشم بن المغيرة هموا بأن يستأذنوه فى أن ينكحوا بنتهم علياً زوج فاطمة، غضب الرسول، وضاق بهذا المكروه الأليم الذى أشفق أن يلم بفاطمة.

وكان يغار لها ويفديها، فقال على المنبر:

- إنى لا آذن ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا إن أراد علىّ أن يطلق فاطمة وينكح ابنتهم، فإن فاطمة بضعة منى ويريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها...

فسقط فى أيديهم واستخذوا، وغضوا أبصارهم حياء من الرسول لايبتغون إلا أن يظفروا برضاه.

وكأن الله كرم فاطمة فى نسلها الطيب، فاختصها بذرية محمد، ولم يكن له عقب من سواها، وكفى بالحسنين السبطين اللذين كانا قرة عين الرسول وأحب الرياحين إلى شمه، كان يسميهما ولديه، ولطالما لاعبهما ووصى بهما، وتفرس فى وجهيهما الصبيحين، فرأى من خلال القدر مصيرهما الفاجع، أكان الرسول ينشق سبطيه الحبيبين ويقول إنى أشم رائحة الجنة فيهما لأنه يعلم لهما ذلك المصير؟

ومات الرسول، فتضعضعت فاطمة وجزعت، وانفطر قلبها وفاضت عيناها، فآوت إلى على تجمعهما بعد الرسول لهفة مضاعفة ومودة وحفاظ، فهى لا تألوه وقد أنجبت له البنين والبنات.

وهاج المؤمنون والمؤمنات لموت الرسول وطاشت أحلامهم، فمادوا لهول المصيبة واضطربوا؟ وسعى رجال من المهاجرين والأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة، فتحاوروا وتشاوروا، ثم بسطوا أيديهم بالبيعة لأبى بكر خليفة عليهم، ولكن علياً كف عن البيعة، وصد إكراماً لفاطمة التى رأت زوجها أحق بالخلافة، فجافت أبا بكر ووجدت عليه، وتحيز إلى رأيها بنو هاشم، وقد أقام على والزبير فى دار فاطمة لا يبرحانها. وبعد أيام أقبلت بنت الرسول على أول الخلفاء تلتمس ميراث أبيها فى فدك وسهمه فى خيبر، فذكرها أبو بكر بقول أبيها «إننا معشر الأنبياء لا نورث»...

فلما أحست الزهراء أن الخليفة وصاحبه عمر يحولان بينها وبين ميراثها، لاثت خمارها، ودخلت فى لمة من أهلها ونساء قومها على أبى بكر وحوله طائفة من المهاجرين والأنصار، فأنت الزهراء أنات أجهشوا لها بالبكاء، ولما سكتت وهدءوا قالت:

- أبتدئ بحمد الله على ما ألهم وأنعم، اتقوا الله حق تقاته، وأطيعوه فيما أمركم به، فإنما يخشى الله من عباده العلماء..

أنا فاطمة بنت محمد، أقول عوداً على بدء، وما أقول هذا سرفاً ولا شططا، فاسمعوا وعوا، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه تجدوه أبى دون آبائكم. وأخا ابن عمى دون رجالكم، ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لى، أحكم الجاهلية تبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟

فأجابها أبو بكر:

- يا بنت رسول الله! والله ما خلق الله خلقاً أحب إليَّ من رسول الله، ولئن تفتقر عائشة أحب إلي من أن تفتقري، أأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله؟ كان أبوك يقول: نحن معشر الأنبياء لا نورث، وما خلفناه صدقة...

ثم وعدها بأن يدفع لها نصيبها من الميراث، فقامت من مكانها وتوجهت نحو قبر أبيها تنشده شعراً يفيض باللوعة والشكوى.

وأكره عليُّ على البيعة، فسيق قسراً إلى الخليفة، بعد أن لقى ضروب الشدة من عمر، فغضبت فاطمة، ولكن الصديق صاحب أبيها سعى إليها ملتمساً رضاها وعفوها عن عمر، فسكنت خواطرها، وصدعت الفتنة بفطنتها، وحسما للخلاف بايع على أبا بكر بالخلافة، فلم يبق بعد ذلك مخالف عليه.

وعطفت عائشة أم المؤمنين على بنت الرسول، وكأنهما وحيدتان وحولهما أهل كثير، فكانتا تجلسان لذكر الرسول وتتضحان بما فى قلبيهما من حنان وقربى؟ وإن خير من يذكر الرسول بعد موته من النساء زوجته وبنته، فطالت جلساتهما وترددت ذكرياتهما، وودتا لو كانتا به لاحقتين؛ وهاجت الذكرى بأم الحسنين فبكت أمها خديجة وأختيها زينب وأم كلثوم، وارتدت بخاطرها إلى ما كانت تكاتم عائشة من السر الذى ائتمنها عليه أبوها، وكأنها أحست قرب الأجل، فودت أن تفضى بأمرها لعائشة، ففاضت عيناها، ثم ضحكت سنها، وتألق وجهها كسيرتها الأولى يوم همس الرسول فى أذنها حديثه المكتوم فقالت لعائشة:

- أتذكرين يوم بكيت ثم ضحكت حينما أسر إلىّ الرسول حديثاً وكنت منا غير بعيدة؟

قالت عائشة بلهفة وعجب:

- بلى يا فاطمة!

فأجابت فاطمة:

- أسر إلى الرسول بأن جبريل كان يعارضه بالقرآن فى كل عام مرة، وأنه عارضه فى هذا العام مرتين، ولا يرى إلا أنه قد جاء أجله، فبكيت جزعة فزعة، ولما رآنى الرسول مروعة قال:

- ألا ترضين يا فاطمة أن تكونى أول أهل بيتى لحاقاً بى؟

فضحكت لذلك كما رأيتنى يومذاك.

فأكبت عليها عائشة تواسيها وتقول لها:

- ما رأيت يافاطمة أفضل منك غير أبيك!

وكانت تلك الضحكة من فاطمة الزهراء آخر ما افتر عنه فمها الطاهر. فقد طاف بها طائف الأحزان بعد أبيها وجاءت قبره باكية تحييه وترثيه، ثم أخذت من ترابه حفنة ألقتها على وجهها، ووقفت تشيعه بطرفها، وكأنها تودعه إلى ميعاد قريب.

وطفقت تستعبر وتندب، وتحنو على أولادها مندفعة فى شمهم وضمهم، مشفقة من فراقهم.

وشكت فاطمة ذات يوم إلى أسماء بنت عميس إحدى السباقات إلى الإيمان والهجرة، نحول جسمها وتوعك مزاجها، وشد ما راع أسماء أن تسألها الزهراء سؤالا أجفلها إذ قالت:

- أتستطيعين يا أسماء أن توارينى بشئ؟

فخففت عنها الوهم وهدهدت أشجانها، ولما ألحت الزهراء أجابت أسماء:

- إنى رأيت أهل الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير..

فالتمست الزهراء أن يصنع لها مثل ذلك، فلما رأته قالت: سترتموني ستركم الله.

وأقام عليّ بين يديها يواسيها ويسليها، ويهون عليها ويرجو لها العافية، وقد امتلأت نفسه حنانا عليها، فلما لحقت فاطمة بأبيها بعد أشهر معدودات، دفنها عليّ وروحه تكاد تنفطر حزناً وغماً، ونزل في قبرها يودعها الوداع الأخير.

وكانت لا تنقطع عن البكاء بنتاها زينب وأم كلثوم.

وأسرف أولادها على أنفسهم، فلم يتعزوا عن الحزن الذي ملأ قلوبهم لوعة وحسرة؟ واستوحش على بعدها من البيت، وجزع عليها وبكاها، وكان لا يشفيه إلا أن يزور قبرها ويرثيها بشعره الدميع.

وكم أكب على الضريح وبكى، ونشق من فوقه التراب ثم ناجاها من ورائه، وناداها بحسرة كاوية ونغمة شاجية:

- يا فاطمة!.. يا أم الحسنين!

الفهرس

رقم الإيداع	٤٣٠٠ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى	٩٧٧ - ١٠ - ٠٥٣٧ - ٥